
ساحر الكتب
علاء أحمد
عُزلَة
رواية
السراج
SERAJ









18 ش العرب من شارع 77 المعادى ـ القاهرة
Mobile: 01143679371 ـ 01224068553
Facebook: Seraj for Publishing & Distribution ـ
السـراج للنشـر والتـوزيـع
E ـ mail: seraj.books@gmail.com

عزلة

علاء أحمد

رقم الإيداع : 2015 / 22976
الترقيم الدولي : 978 ـ 977 ـ 85203 ـ 3 ـ 0

الطبعة الأولى : 2016 م ـ 1437 هـ

الناشر: © السـراج للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية ـ القاهرة

تصميم الغلاف: أسامة علام





رواية

علاء أحمد

السراج للنشر والتوزيع



الإهداء

إلى الجميلتين، إلى من غمراني بحبهما

أمي... زوجتي

إلى الإنسان.. أيما كان، أينما كان

علاء أحمد





(١)

«أحيانًا يكون من نريد بجوارنا، لكننا لا نراهُ لأننا نبحث عنه من خلال صورته الوهمية التي رسمناها له في مخيلتنا على أنها الحقيقة المطلقة التي لا ريب فيها»





كان اختلافه الوحيد عن المقابر المعتادة، أن ما بداخله أحياء، هكذا بدا لي مع أول يوم في زيارتي إليه، وانتقالي بدخولهِ إلى مكان بعيد من عالم آخر، فقط مدخله يطل على عالمنا، بل يطل على أكثر الميادين حداثة وأناقة ليكون هذا المدخل شرفة يرى منها المستقبل من يسكنون الماضي.

كنت أتخيله دومًا مسكونًا بالعفاريت عندما يتصادف مروري من أمامه، فكانت صدمتي أن من يسكنه أحياء.

دائمًا يلفت أنظار المارين لطرازه الغريب عن باقي المباني من حوله، لكنه أبدًا لم يشغل تفكيرهم حتى في مجرد الفضول أن يعرفوا طبيعته، كمن يختزل نفسه في هيئة خارجية يجذب بها الأنظار لثوانٍ معدودة؛ لأنه لا يمتلك بالداخل الكثير من التفاصيل العميقه التي تسترعي التفكير الطويل.

كانت كل علاقتنا به إذا مررت وأصدقائي عليه هي صورة تُلتقط بأحدث الكاميرات بجوار أقدم المباني، فكثيرنا يحب أن يظهر في كدر صورة تحوي التراث والقديم في لقطة لثوانٍ، لا أن يعود ليعيش هذا الزمن دون هواتف ذكية ولا سيارات فارهة..

في هذا اليوم مررت كثيرًا من أمامه وأنا أبحث عن العنوان المدون



على خطاب تكليفي العملي من المعهد العالي للخدمة الاجتماعية، كانوا يشيرون إليه وأنا أسأل عن هذا العنوان، فكنت أذهب إليه وأبحث بجواره وأطوف حوله لمساحته الضخمة، فكل جانب من جوانبه الأربعة يطل على شارع كبير ما ظننت مرة واحدة أنه هو ما أريد، لا سيما أنه لا يوجد ما يدل على الحياة بداخله، ولا لافتة عليه تحمل اسمه.

تنكر من نفسه؛ فنُكر من الآخرين هو وساكنوه.

لم يكن لدي خيار آخر إلا الذهاب إليه بعد أن مسحت كل المنطقة المحيطة به باحثًا عنه.

«أحيانًا يكون من نريد بجوارنا، لكننا لا نراهُ لأننا نبحث عنه من خلال صورته الوهمية التي رسمناها له في مخيلتنا على أنها الحقيقة المطلقة التي لا ريب فيها».

دخلت إليه من بوابته الرئيسية، قد سبقتني نظراتي الاستكشافية باحثًا عن أمن البوابة فلا أحد، واصلت السير مارًّا بممر طويل على جانبيه أشجار متعانقة عند الفروع لتصنع بالتقائها سقفًا من ورقات الشجر.

متجهًا إلى المدخل الآخر والذي يعلو عن الأرض بسلم من ثلاث درجات على نمط القصور الملكية القديمة، والتي قد حُوّل أغلبها إلى مستشفيات أو مديريات للوزارات.

كل ذلك، ولا أحد يعترضني، ولا أحد قادم نحوي أراه على مرمى بصري؛ مما زادني ترددًا في الإقدام، فقبيل اقترابي من السُّلم، وقفت قليلًا، نظرت خلفي لعل أحدًا أتى من حراسه؛ فقد توغلت كثيرًا دون أن يُؤذن لي.



مسحت حولي بنظرة عابرة فلا أحد، ثم عاودت النظر أمامي بحركة تعكس توجسي وقلقي عله من خلفي يأتي خارجًا من البوابة الثانية، ومع التفافي السريع حدث ما كنت أحسبه، لكنني أيضًا فوجئت ففُجعت، وارتجفت مع قولها في وجهي عند التفافي:

ـ أيوة يا أستاذ طلباتك.

ما كان منها إلا أن ضحكت من فجعتي وارتجاف جسدي؛ الأمر الذي حاولت أن أنفيه بردي السريع عليها.

ـ حضرتك دا الملجأ الفرنسي؟

مع ردي السريع وصوتي الذي حاولت أن أخفي وراءه فجعتي، إلا أن اهتزاز جسدي المفاجئ كان فاضحًا.

اصطحبتني «غالية» عاملة الخدمات المعاونة وأول من رأيت من بشر في هذا المكان إلى مكتب الأستاذة «مارسيل» المرشدة النفسية للملجأ والتي تستقبل الطلاب القادمين للتكليف العملي..

إن كانت «غالية» أول من رأيت من بشر فـ «مارسيل» كانت أول روح في أرض الأموات؛ وجهها كشهاب فى ليل شعرها الأسود المنسدل على كتفيها، يتطاير فرحاً بمداعبة الهواء له، معقوفة الأنف، ذات عينين واسعتين،ليست بالقصيرة ولا الطويلة، جاذبة للأنظار كحال القمر في ظلمات الليل.

طلاقة وجهها وطريقتها البسيطة تذيب أي تحفظ وترفع كل تكليف.

تجاذبنا أطراف الحديث؛ فقد توافقت الأهداف والرؤى؛ حيث إنها



تعمل في هذا المجال عن رغبة ودراستها أيضًا فيه عن رغبة وليس لأنه المتاح أو ما فرضه عليها مجموع درجاتها، وكذلك حالي في اختياري لتخصصي.

طالما تمنيت مثل هذا الحديث ونقل الخبرات الذي كان بعيد المنال بين أقران دراسة لا يبحثون إلا عن بعض الأسئلة المتوقع مجيئها في الامتحان دون أي اهتمام بما يدرسون، أغلبهم يريد فقط المؤهل دونما أي تأهيل.

ومما ساعد على سريان الحديث بعد توافق الاهتمامات هو السن المتقارب؛ فهي فقط من خريجي العام الماضي، واستلمت عملها بعد تخرجها مباشرة وأنا في عامي الدراسي الأخير، وإنا كنا متساويين في عام الميلاد، إلا أنها تكبرني بشهرين، هذا ما عرفته من ردها على سؤالي عن عمرها ودفعة تخرجها؛ لِما رأيته منها من خبرات وأفكار وفلسفة خاصة في التعامل مع النفس وإرشادها.

بينما نحن كذلك، حوار متدفق نتبادل فيه الرؤى وأسمع منها عن طبيعة الملجأ وحال المقيمين فيه، إذ دخلت علينا بهيئة ووجه متناسق تمامًا مع حال الملجأ؛ حيث جمود الملامح والزي غير التقليدي كغرابة نسق هذا المبنى عن المباني المجاورة له، وكأن أحدًا منهم قد تأثر بالآخر هي أو المبنى.

فور دخولها، توقفت «مارسيل» في ثبات عسكري تبادر في تعريفي لها، بينما هي لا تتحدث، تنظر بعين حادة شاخصة ووجه متجهم، كل تواصلها معي كان نظرة واحدة مسحتني بها بعد تسلمها ورقة تكليفي من «مارسيل» دون أن تتحدث بكلمة واحدة معي أو معها وأنا أيضًا لم أحاول ذلك، فتحفز ملامحها واقتطاب حاجبيها يمنعان أي أحد من أن



يبادر بالحديث أو التواصل معها خوفًا من رد فعل قد يتوقع صلبًا كحال ملامحها.

لم يكن منها أي حديث، ولم أكن قد تعاملت معها بعد، إلا أن ذلك القدوم بهذا الشكل كفيل وحده أن يحدث انطباعًا سيئًا لدي تجاهها، تمامًا كالابتسامة التي تسبق حديث صاحبها الذي تراه لأول مرة كفيلة أيضًا أن تفتح صدرك له وتتهيأ لقبوله وقبول ما يقول حتى قبل أن يتفوه به.

وكأنها شعرت بمدى فضولي الداخلي لمعرفة من هذه التي دخلت فجأة دون مقدمات فوقفت لها احترامًا وتبجيلًا، وخرجت دون أن تتحدث بكلمة واحدة، فبادرتني قبل سؤالي:

ـ إنها الأم الراهبة «مارية» راعية الملجأ والمسئولة الأولى عنه.

تفهمت بهذا التعريف لماذا قامت لها باعتبارها المسئولة الأولى عن الملجأ وأيضًا طبيعة زِيّها كونها راهبة، لكنني لم أرَه مبررًا قط لعبوسها وتعاملها الجاف؛ الأمر الذي أخفيته فهذا أول انطباعي عليها، ولعلها غير ما أظن ومجيئي بالأساس من أجل تكليف له مدة محددة أحب أن أقضيها بحب مع كل الناس هنا، لا أن أطلق أحكامي عليهم.

اصطحبتني «مارسيل» في جولة داخل الملجأ لتعرفني عليه وعلى مقيميه الذين سيصبحون محل اهتمامي.

في هذا اليوم الذي لا ينسى والذي ما زلت أذكره بكل تفاصيله، وكأنها لم تكن جولة تعريفية داخل أرجاء الملجأ، بل كانت رحلة في أعماق النفوس ودواخل كانت مغلقة بأحزانها، انتهت الرحلة ولم تنتهِ معانيها، بل لم ينتهِ عبئها النفسي، فأشعر وأنا أقلب صفحات روايتي،



وكأنني أعود أدراجًا إلى تلك الأيام، أعود مع كل صفحة إلى يوم أو حدث، بل أعود مع كل كلمة إلى لحظة عشتها في ذلك الملجأ، ولِمَ لا؟! فما كنت يومًا روائيًّا ولا رغبت في ذلك، لكنني اكتشفت ملكتي هذه عندما صدقت أحاسيسي، عندما شعرت، وكأن الكتابة ليست سوى لحظة واقع عشناها بحق، ومن فرط شعورنا بها بالغنا في وصفها؛ فسرحنا في ملكوت الخيال، عندها تيقنت من صدق تلك المقولة «قد يجعل منك الحزن مبدعًا.. لكنك مهما كنت مبدعًا لن تقنعني أنك حزين وأنت لست كذلك، فكثير من الإبداع كان تأوهًا من أوجاع».

فتحول تقريري عن فترة تدريبي العملي في هذا الملجأ إلى رواية دون قصد لذلك، فقط الحاجة إلى أن أروي ما أهمني.



(٢)

«على بعد خطوات منهم أناس آخرون تائهون بين خياراتهم وترفهم ولهوهم، قد يسمعون ضحكاتهم وهم بالداخل، ولا يسمع من بالخارج أنينهم»





فى مكان قريب، بعيد، قريب من الزحام ومن مقاصد الناس، وفي أشهر الميادين، بعيدًا عن اهتمامهم وأنظارهم وإن كانوا يترددون حوله ويمرون من أمامه، يكون هذا المبنى.

محاطًا بالأشجار العتيقة الباسقة ملتفة الأغصان، قد رسمت بأغصانها وفروعها المتشابكة تجاعيداً على وجه هذا المبنى، تظهر فعل السنين والأزمنة عليه، وتخفي معالمه، ليصبح مغمورًا في قلب هذا الميدان المشهور، وتمنع بأوراقها الكثيفة ضوء الشمس عن نوافذه؛ فتكتمل العزلة؛ فيصبح الليل والنهار بداخله سواء، بل الليل أفضل حالًا من النهار؛ حيث تُضاء المصابيح، أما النهار فيكون الاعتماد على ما تسرب خفية من ضوء الشمس من بين فرجات الأوراق ليكون مصدرًا للضوء.

عالم يتكون من ممر طويل، عالي السقف، على جانبيه غرف كبيرة، بين كل غرفة وأخرى لوحة عملاقة قديمة، مرسوم بداخلها إحدى الأيقونات أو الرسوم المسيحية العقائدية، وفي كل غرفة اثنا عشر سريرًا، وفي كل جانب ثلاث غرف من هذه الغرف الكبيرة، ينتهي هذا الممر بساحة مسقوفة بسقف من الخشب، وفي محيط هذه الساحة الكبيرة مقاعد للراحة والجلوس وكأنها مكان التنزه والتغيير لنزلاء هذه الأسِرة التي في الغرف الكبيرة.



في الجانب الأيمن من هذه الساحة باب قديم من حديد، وكأنه قطعة من أثر قد تبقى من زمان سابق، محفور بوسطه صليب عليه ترميز لهيئة المسيح مصلوبًا، منحوتًا بكتلة من النحاس الأحمر، يفصل هذا الباب بين ذلك المبنى بكل محتوياته وهذه الكنيسة المشيدة على النسق الغربي الكاثوليكي القديم كقدم المبنى الملحقة به.

وفي الجانب الأيسر من هذه الصالة باب آخر، هو مدخل إلى حديقة المكان والتي تُدخل من الشارع مباشرة عن طريق بابها الثاني.

حديقــه لا تحوي بداخلها أية زهور، بل بعــض رفات لها من يرقات، ولا أشجار مثمرة، بل أعجاز جذوع خاوية على أرض مكسوة بحشائش عشــوائية غــير مهذبة، نَبتٌ قــد اكتفى مــن الأرض ترابها، ومن الســماء قطراتهــا لا يحتاج منهم أي اهتمام قد خرج من باطن الأرض ليموت على ظهرها.

كان من الممكن أن تكون هذه الحديقة هي مصدر الراحة والترفيه لهؤلاء النزلاء ببعض الرعاية، لكنه الإهمال المقصود؛ إمعانًا في العزلة وكأنه لا يجب أن يكون هنا شيء جميل، أو لعلهم يعتقدون أن لا حاجة للكبار في الأزهار.

في داخل هذا المكان «أناس» لكن ليسوا كغيرهم ممن بخارجه؛ حيث تقارب أعمار القاطنين، فجلهم في أرذل العمر، الكل بداخله مسيراً، فلا اختيار لهم ولا رأي إلا في دخولهم الخلاء، وإن كان على بعد خطوات منهم أناس آخرون تائهون بين خياراتهم وترفهم ولهوهم، قد يسمعون ضحكاتهم وهم بالداخل، ولا يسمع من بالخارج أنينهم.



(٣)

«رغم ذبول خديها وساقين يميلان بها دون رياح، بيد أن الناظر إليها سيعلم أنها وردة كان لها رحيق في الماضي، تغير شكلها ولم تتغير صفتها»





«ألفونس» أحد قاطني هذا العالم، يخرج كعادته مع باكورة كل صباح من حجرته وهي إحدى هذه الحُجر الكبيرة.

يخرج متوكأً على «عُكّازه» الذي يعتليه الصدأ، فعلت به الأيام كما فعلت بصاحبه، لكنه ما زال قادرًا على الصمود، يتحمل صاحبه دون ضجر.

بل هو آخر ما تبقى له من معين إن انكسر فلا خروج من هذه الحجرة إلا الخروج الأخير محمولًا على الأكتاف، مسوقًا الى قبره الثانى.

فشعار العاملين هناك لخدمتهم «اخدم نفسك بنفسك».

ماشيًا في الممر المؤدي إلى الصالة الكبيرة بخطوات متثاقلة بطيئة، فلا حاجة له في الوقت حتى يعجل، وإن كان هو في الأساس غير قادر على العجلة وحياته تدور في عملية يومية روتينية لقتل ما تبقى له من الوقت في عمره.

لا تتغير وجهته اليومية، بل لا يتغير مكان جلوسه المفضل بجوار صديقة عمره «كرستين».

يظل كذلك حتى تغيب الشمس ويذهب كل واحد منهما إلى سريره.



دائمًا ملابسه كالمعتاد، قميص في داخل البنطال، متحزم الوسط بذلك الحزام الجلدي الرفيع الذي تشقق جلده من قِدمه ومن كثرة الثقوب حتى يصل إلى مقاس خصره الضئيل، قد يتغير البنطال يومًا أو القميص، إلا أن الحذاء البلاستيك الأسود ليس غيره مع كل طقم... «كرستين» رغم ذبول خديها وساقين يميلان بها دون رياح، بيد أن الناظر إليها سيعلم أنها وردة كان لها رحيق في الماضي، تغير شكلها ولم تتغير صفتها، كان لا بد لها من حديقة تنبت فيها غير بوار ذلك الملجأ.

دائمًا تحمل بيدها ذلك «الفلوت» العتيق، فضي اللون، الأنيق كأناقتها، هو ذكراها الوحيدة من موطنها، وهوايتها القادرة على أن تمارسها.

لا تكل من عزفها عليه، لكنها كانت تعزف عزفًا نشازًا صاخبًا، رغم أنها خبيرة بعلم الموسيقى، لكنها كانت تجد في ذلك النشاز الاعتراض الوحيد والخروج عن المألوف، وإن كان مجرد خروج عن قواعد علم الموسيقى، فطالما ظلت مقيدة بقواعد وقوانين الملجأ الصارمة، كانت تستنفد قواها وأنفاسها وهي تنفخ فيه وكأنها نفخة ضجر من حياتها الروتينية تُخرج بها ما في صدرها من ضيق.

أما في هندامها، فما زالت محافظة على الأناقة الكلاسيكية في ظل المتاح لها من ملابس.

ما زالت ـ رغم كبر سنها ـ تلبس التنورة القصيرة السوداء، والجوارب الطويلة البيضاء، والقميص الأحمر الذي تغلق ياقته على عنقها وكأنها عضوة في فريق للكورال أو طالبة في مدرسة لها زيها الخاص، لا تريد إلا أن تعيش كفتاة في العشرين من عمرها أو قبل ذلك، لعله العمر الوحيد الذي عاشته بالفعل؛ فلا تريد أن تعترف فيما بعد ذلك عندما أتت ها هنا وهي الآن في السبعين من عمرها.



كان ثمة أناس آخرين، وثمة مشاهدات أخرى لهم، لكنني كنت ملتزمًا بالحالتين اللتين وُكلت بهما، لكن التزامي هذا لم يمنعني من أن أتفقد الجميع حتى لو بسلام عابر في كل صباح عند مجيئي إليهم، كان ذلك لا ينقطع من أول يوم حتى وقتي هذا، وقد مر أسبوع عليّ هنا.

كان كافيًا ذلك الأسبوع أن أرصد عاداتهم وروتينهم الذي لا يكاد يتغير، حتى شكل ملابسهم وأماكن جلوسهم، انتظرت حتى أرى أي تغيير فلم أجد، حتى علمت أنهم يعيشون حول ثوابت لا تتغير، لا يطرأ عليهم تجديداً، فما رأيته اليوم، غالبًا سيكون مشهد الغد، بل ظل طوال الأسبوع إن لم يكن هو طوال حياتهم في الملجأ.

طيلة هذا الأسبوع أيضًا، على مقعد في ركن من أركان الصالة الكبيرة، المقابل للركن الذي يقبع فيه دائمًا حالتيَّ «ألفونس ـ كرستين» تكون هي، حالها هو هو لم يتغير؛ لغرابته استرعى اهتمامي وتفكيري وإن كانت ليست من ضمن حالاتي، فالتعاطف الإنساني لا يتقيد بتقسيم روتيني قد فرضه مكان ما.

دائمًا سارحة في ملكوتها، تحملق بعينيها في اتجاه واحد، لا يزيغ بصرها عنه، تشاهد أشياءاً لا نراها، لا تسمع من حولها وإن نودي عليها إلا بعد مرات.

حتى الأذن منصتة لحديث آخر لا نعرفه، قد أخذها عنا.

وكأنها مستغرقة في ماضٍ قد خلا، كان يتجمع فيه حولها الأحباب، كانت فيه مرغوبة من الجميع.

فتهرب في تلك الذكريات عن واقع لا تحب أن تعيشه وتعترف به،



تأبى حتى أن تشارك فيه بسماع أو مشاهدة، فضلًا عن التواصل بالمحادثة مع من حولها.

دائمًا كذلك، أو على النقيض، كالعاصفة بعد الهدوء.

فبعد استحضارها لتلك الأيام الخوالي تريد أن تكون حاضرة فيها بنفسها لا بخيالها، فترى أن موانعها هذه الأسوار العالية والبوابات الحديدية؛ فتهرول عليها كعصفور ينتفض بجناحيه وهو يدور في رحى القفص باحثًا عن مخرج للفضاء الطلق.

فتدفع الباب المؤدي إلى الحديقة؛ حيث أبواب الملجأ الأخرى غير الرئيسية وبراح الحديقة والسماء التي لا تحجبها سقف، فهو المكان الوحيد الأقرب للخارج بطبيعته وأيضًا رؤية الشارع الواضحة بين فرجات القضبان الحديدية للبوابة.

يأتون بها وهي منهكة من هرولتها، وأيضًا من محاولة دفعهم وهم يمنعونها من الخروج خارج البوابة، يُؤتى بها محمولة إلى سريرها قد نفدت كل قواها وقدرتها من حالة صرعها؛ فتكون جسدًا هامدًا ليس فيه غير أنفاس تدل على أنها ما زالت على قيد الحياة.

حالها الغريب هذا كان شديد الأثر على نفسي، ليس فقط في ذلك الوقت الذي أكون فيه داخل الملجأ، بل وأنا في بيتى أفكر فيها وفيهم، أحيانًا كان يذهب عني النوم انشغالًا بحالهم، كنت أقول في نفسى كيف ينام قرير العين من له أحد في الملجأ، دائمًا كانت تراودني مشاهد «الحاجة أمينة» وهي تهرول إلى البوابة تريد الخروج، كنت أتخيل فيها أمي، لعل ذلك من هيئتها وتلك «العباءة السوداء» و«الطرحة» التي تلبسها تمامًا



كطريقة ملابس أمي، كنت لا أستطيع أن أتخيل ذلك على أمي لمجرد التخيل لثوانٍ، أن أكون نائمًا منعمًا وهي تقاسي الوحدة، لا يصاحبها غير الذكريات، فكيف بأبنائها يتحملون ـ إن كان لها أبناء ـ وكيف بعائلتها يرضون ذلك؟!

كانت مشاهدهم حاضرة معي في مواضع كثيرة، فعند طعامي كنت أتذكرهم، وأتذكر معاناتهم، أتذكرهم وأنا ألهو أو في فرحي وهم قابعون في ملجئهم، لم أستطع الفصل كما كان يفعل زملائي في الدراسة، وكما كانوا يقولون لي عندما كنت أتحدث معهم عنهم ونحن في المعهد أو خارج الملجأ، كانوا يقولون: عندما نخرج من الملجأ ننسى كل شيء، نحن نذهب فقط لقضاء ذلك التكليف، هو فقط ما سنُحاسب عليه، فلا تُكلف نفسك فوق طاقتها.

كنت أقول في نفسي لكن حالهم أيضًا سأحاسب عليه في ضميري وداخلي إن لم أحاسب عليه في المعهد.

كانت «مارسيل» هي الأقرب لي كي أحكي لها ما أهمني، وإني أريد أن أفعل شيئًا يسعد هؤلاء المسنين، فكنت أرى فيها دائمًا ذلك الحرص.

كانت دائمًا معي في تجوالي عليهم، تفكر معي في أحوالهم، فكانت العادة التي داومنا عليها كل يوم أننا نمر نتفقد كل المقيمين، ونوزع عليهم بعض الحلوى التي تعاونا في ثمن شرائها، ثم بعد جولتنا هذه أذهب أنا إلى حالتيّ، وتذهب هي إلى مكتبها، لكننا كنا نعلم أن هذا لا يكفي، وإن كان ذلك يسهم في فرحة كبيرة لهم، ولكنه القليل المتاح، حتى نفكر فيما هو أكبر من ذلك.



على الرغم من أن ما قمنا به يعتبر جهدًا شخصيًّا لنا ولم نثقل على الإدارة فى شيء ولن نثقل، فحتى ما نفكر فى عمله مستقبلًا نعتمد في تنفيذه أيضًا على جهدنا الشخصي.

إلا أنني كنت أشعر بعدم ارتياح من الأم «مارية» مسئولة الملجأ، على عكس توقعي أنه سيسعدها كونها المديرة وتبحث عن أي نجاح لمؤسستها.

لم يكن عدم ارتياحها معلنًا، ولم يكن ثمة عرقلة منها، لكنه كان واضحًا في نظراتها، فضلًا عن أنها لم تبدِ إعجابها ولا ثناءها على ما كنا نفعله، حتى هذه اللحظة، لم يكن أي تواصل بيننا، فقط أجدها دائمًا كشبح يراقب تحركاتنا من بعيد، معنا دائمًا بنظراتها، ولكنها لا تشارك بشكل مباشر، حتى أنني مع كل جولة أو جلسة مع أحد المسنين أنظر خلفي أو جانبي متوقعًا رؤيتها؛ فأراها تنظر إليّ من بعيد، ما إن أنظر إليها إلا وتتحرك كأنها ذاهبة إلى وجهة أخرى، كانت أكبر لغز بالنسبة لي في هذا المكان، تعدى حتى نهمي في أن أعرف قصص هؤلاء النزلاء، وقد كنت أؤجل الحديث الخاص المستفيض معهم وعن قصصهم حتى تتوثق علاقتي بهم ويذوب جليد صمتهم عند اطمئنانهم لي؛ وهو ما لم أخض فيه حتى بعد مرور أسبوع على مجيئي. في مرات عديدة، كنت أنوي التحدث في شأنها مع «مارسيل» ولكني كنت أتراجع؛ خوفًا أن يكون حديثًا غير مرغوب فيه، أو تعديًا في غير ما جئت من أجله.

شعرت أيضًا أنها لا تستسيغ علاقتي بـ «مارسيل» وإن كانت واضحة وظاهرة جدًّا أنها في خدمة المسنين وليس فيها أي شيء خفي، لكن كل هذا كان توقعًا لا أجد قرينة عليه تعضده.



مراقبتها لي أصبحت مريبة في أوقات كثيرة، ففي مرة كنت ذاهبًا إلى المرحاض ماشيًا في ردهة طويلة تؤدي إليه، وقبل دخولي المرحاض، نظرت خلفي، وبالفعل وجدتها في نهاية الردهة تنظر إلى أي وجهة أنا ذاهب.





(٤)

«خمسة وسبعون عامًا ناقصة من عمري، كنت فيها من الأموات واحتُسبت عليَّ حياة»





أوشك أسبوعي الثاني على الانقضاء، لكنه ليس كسابقه، فقد ظهرت بوادر التغيير الذي كنت أنشده، فتحركت المياه الراكدة بفعل تلك الابتسامات التي كنت أقذفها على الوجوه التي طالما ظلت ثابتة، فلا أحد إلا وأصبح يعرفني، كنت أتسامر مع الجميع حتى ولو لم أجد من بعضهم تفاعلًا أو حتى ردًّا عكسيًّا كالذي حدث عندما مررت على ذلك المسن الذي يرتدي دومًا «البالطو» الأبيض الخاص بالأطباء والذي قد علمت بعد، أنه كان مديرًا لمستشفى الرمد السابق بالإسكندرية، قد دار عليه الزمن وفعلت فيه السنوات فعلها؛ فأصيب بالذهان النفسي والذى تسبب له فى اضطرابات حادة فى سلوكه وتدهور فى قواه العقلية، وهو ماكنت أجهله، فلو كنت أعلم لكنت على الأقل قد احتطت من تلك البصقة التي بصقها على وجهي عندما دخلت عليه مداعبًا إياه،رافعًا يدي إليه بسلام حار «صباح الخير يا دكتور».

غير ذلك الموقف وموقف الحاجة «أمينة» التي ترفض أي تفاعل والتي دائمًا ما تكون سلبية تجاه أي تواصل، فكل الردود كانت إيجابية مع كل المسنين المقيمين، لا سيما حالتيّ اللتين اشتد وثوقي بهما، وتقلصت بيني وبينهما الحواجز؛ وهو ما يجعل من الطبيعي أن أكون ملمًّا أكثر بحالتهما وقصصهما التي يبدو من هيئتهما وطبيعتهما أن بها الكثير من



التفاصيل الغريبة؛ حيث إنهما في الأصل فرنسيان، كان واضحًا من أسمائهما «ألفونس ـ كرستين» لكنني تأكدت من ذلك من لغتهما العربية الفصحى المتلعثمة التي تقل فيها العامية، وكأنهما تعلماها أكاديميًّا دون أن يتحدثا كثيرًا مع مصريين.

علاقتي الأكبر كانت «بألفونس» حيث إجادته التحدث نوعًا ما عن «كرستين» للغة العربية، وهو مايشق على الأخيرة، وأنها أيضًا ربما لا تجد دافعًا لهذه المشقة وعندها صديقها المقرب «الفلوت» الذي تحدثه بنفخاتها؛ فيتحدث إليها بأنغامه التي تعشقها أذناها عن أحاديث البشر.

«ألفونس» دائمًا كان يحب أن يستأثر بي عن باقي النزلاء عند مجيئي.

كان يحب أن أكون بجواره وإن لم نتحدث، يحب أيضًا أن يسمعني وأنا أغني، حتى وإن لم يفهم بعض كلمات الأغاني التي أتغنى بها، لكنه كان مُطرَبًا لصوتي أكثر، منذ أول مرة سمعني فيها أدندن.

ما زاد هذه العلاقة بيني وبينه وثوقًا، ذلك الحذاء الذي أهديته إياه، بدلًا من البلاستيك الذي أصاب كعب قدمه بحافته الوعرة.

لم يكن هناك ما أخشى أن أتحدث به مع «ألفونس» أو ما أظن أنه لن يحب الحديث معي فيه، بل على العكس، كان كثيراً ما ينتظر مني الأسئلة ليسترسل في الحديث، كما كان يقول لي دائمًا، تكلم معي وحاورني، فأنا لا أعرف أن أفتتح حديثًا ولا أعرف في أي شيء أتكلم.

فكان سؤالي الذي طالما كان يراود عقلي: من أتى بك إلى هنا؟ وما قصتك؟ وما هي قصة رهبانيتك؟..

حيث إنه يُلقب من بعض العاملين في الملجأ بـ«الراهب ألفونس»؛



وهو ما كان غريبًا بالنسبة لي، فلا يبدو عليه أي شيء يوضح رهبانيته وإن كان مجرد المكوث في الملجأ رهبنة، لكنني أقصد بذلك زِيّهُ العادي، وأنه يُعامل مثل باقي المسنين ودائمًا معهم.

فكان رده عليّ:

- لماذا ترهبنت ولماذا أنا هنا؟ سؤال في سطر، إجابته كل آلام حياتي، إجابته خمسة وسبعون عامًا ناقصة من عمري، كنت فيها من الأموات واحتُسبت عليَّ حياة

طأطأ رأسه إلى أسفل وسكت لبرهة ثم رفع رأسه لأعلى، وكان في عينيه مسحة من دموع، جعلت جسدي يرتخي أسفًا، وعيناي تغالبها دموعها، رغم أنه لم يروِ ما أصابه، لكنه الإشفاق من دمعة مسن قد بلغ من الكبر عتيًّا، والضعف الموجع لمن لا يستطيع حيلة.

أردفت قائلًا:

- لا تحكِ ما يؤلمك، وأتأسف أني ذكرتك بالمواجع.

- لم تعد المواجع بعد ذكرى، فما زلت أعيش فيها نشأت عليه.

سأروي لك، فكيف أخذل أول من أراد أن يسمعني!دائمًا نسمع ونطيع، حتى سماعنا محدود، فهو مقيد بما تقوله الأم، إن لم تقل فلن نسمع.

اصطحبني إلى سريره، وأخذ يبحث في أمتعته عن شيء ما، حتى أخرج لي صورتين، لرجل وامرأة، قال:

- لولا هاتان الصورتان ما عرفت لوالدي شكلًا، هما كل ميراثي عنهما، وهذه الحقيبة التي تحوي أوراقهما، وذلك التكليف الكنسي الذي خط لحياتهما وحياتي من بعدهما، بل شهادة وفاتهما ووفاتي أيضًا.



أبي «ألكسندر» وأمي «أنجيليا» كانا من خدام الكنيسة في فرنسا، عابدين للرب، لم يترهبا، لكنهما كانا من «المتقربين» جعلا نفسهما في خدمة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وهي الكنيسة الأم، كالأرثوذكسية القبطية في مصر، كانت الكنيسة في فرنسا في هذا الوقت ترسل الإرساليات للبلدان غير المسيحية، وهي مهمة يقوم بها أتباع المسيح لنشر رسالتة لكل العالم عن طريق خدمة البشر، قد تكون الإرسالية مدرسة، وفي مصر الكثير من مدارس الإرساليات، منها الفرنسية والألمانية والأمريكية، كالجامعة الأمريكية التي في الأساس إرسالية أمريكية، وقد تكون الإرساليات أيضًا جمعيات خيرية أو دورًا للأيتام وملاجئ للمسنين كالتي نحن فيها..

وتسمى الإرسالية أيضًا بالتكليف العظيم في التقليد المسيحي، وهي الوصية التي أودعها يسوع المسيح لتلاميذه بنشر الإيمان المسيحي وبشارة الخلاص في كل العالم، وأصبحت عقيدة من العقائد المسيحية؛ تأكيدًا على أهمية العمل التبشيري في حياة الكنيسة؛ حيث يقول يسوع في إنجيل متّى: «اذهبوا إذن، وتلمذوا جميع الأمم، وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به».

فوهب والدي نفسهما لتلك الوصية، وقررا أن يكونا داعين لبشارة المسيح، فجاءهما ذلك التكليف الكنسي، أن يذهبا إلى مصر وتحديدًا إلى هذا المكان، في الإسكندرية، وكان عملهما في هذا الملجأ، منه ينشران رسالة المسيح؛ حيث أن الملجأ فاتح أبوابه للإنسان، أي إنسان، من أي دين وأي ملة، وهذا هو شعار الإرساليات في كل المجالات، خيرية كانت أو تعليمية أو طبية، أن الهدف هو خدمة الإنسان.



تحوي هذه الإرساليات راهبات دائمات، قد وهبن أنفسهن لهذه الوظيفة الكبرى، ومتطوعين ليسوا دائمين كوالديَّ.

لم أكن قد أتيت بعد عندما أتيا إلى مصر عام ١٩٣٩؛ فقد ولدت بعد عام من مجيئهما إلى مصر.

ما زال يقص عليّ قصته، إلى أن جاء لموضوع سؤالي: لماذا أنت هنا؟

رغم صعوبة مصابه وما حدث له، أن والديه قد ماتا في حادثة سيارة في الإسكندرية، وكان هو الناجي الوحيد؛ ليموت طوال حياته في هذا الملجأ الذي تولى رعايته وتربيته؛ خدمة لأبويه اللذين كان يخدمان فيه المسيح ليكمل هو مسيرتهما كما حُدد له؛ فكُتبت له حياة خُططت أحداثها من قبل، ليس عليه إلا أن يكون كما أُريد له؛ فيُسجن دون أن تقترف يداه.

رغم كل هذا، إلا أن عاطفتي وفكري تعطلا كثيرًا عند خبر الإرساليات، وأن هذا المكان في الأصل قد أُنشئ للتبشير... كمسلم أعتز بديني، لم أستطع أن أفصل بين تعاطفي مع حالته الإنسانية وما حدث لوالديه، وأن والديه أيضًا قد أتيا أساسًا إلينا من أجل التبشير، لعل هذا من الخطأ، لكن هكذا كان شعوري، وما سيشعر به بالتأكيد أي فرد له عقيدة ارتبط بها بفطرته ويغار عليها.

كنت أحاول أن أتغافل عن هذا حتى لا يُوغل صدري منه أو من المكان ككل، وكنت أحاول أن أراه فقط الإنسان الذي تأثرت بحاله، بعيدًا عن انتمائه وسابق حياته، أو المسن الضعيف الذي يحتاج العون، الذي حُرم منذ طفولته من والديه وطوال حياته يُحرم من أدنى حقوقه واحتياجه كبشر في هذا الملجأ؛ وهو ما لم يكن سهلًا، لكنه مع طبيعتي العاطفية، لم يكن مستحيلًا ببعض التحايل من عاطفتي على فكري.



لم أنسَ في نهاية حديثي أن أذكره بباقي سؤالي، وهو أنه كيف كان راهبًا؟ وما سبب ذلك؟ الأمر الذي اتضح لي عند تكرار سؤالي أنه قد نسي سهوًا وليس تجاوزًا عن تعمد، قال هذا عندما أردفت له بعد تكرار سؤالي: «ولك حق التحفظ على الإجابة إن فضلت ذلك» فقال لي:

ـ لم أرغب يومًا في الرهبانية، ولم أتخيل نفسي راهبًا، أصبحت راهبًا كي أجد مكانًا

أعيش بين جدرانه.

قاطعته هنا:

ـ لكن أصولك فرنسية، لِمَ لمْ تذهب إلى سفارتك بعد أن كبرت وبحثت عن أي طريقة تصل بها إلى هناك؟

ـ الأمر ليس بهذه السهولة، فقد نشأت بين جدران الملجأ، لا أعرف أي شيء، وليس لديَّ أي مستندات خاصة بي، لا مستند ميلاد ولا مايثبت هويتي، فقط ما أطلعتك عليه من أوراق والديَّ، لم يكن الملجأ ليهتم بذلك، ثم إن حياتي الأولى لم تكن كالتي عليها الآن، فكنت من أفراد إدارة الملجأ، كنت راهبًا معهم، كنت أخرج وإن كان قليلًا لأماكن محددة بسيارات الملجأ لقضاء حاجاته، وكنا أيضًا نزور ملاجئ أو كنائس أخرى.

في هذا الوقت كنت متشربًا فقط بفضل الملجأ عليّ، ما كنت أحب أن أخالفهم، كنت أود فقط رد جميلهم ورسالة الرب، هكذا كان فكري في بداية عمري.

رغم أنني كنت بين المسنين طيلة عمري، لكنني ما عرفت معاناتهم



إلا عندما أصبحت واحدًا منهم، وأصبحت أعيش في عنابرهم، فقد سُحبت مني حجرتي الخاصة كراهب لراهبٍ آخر شاب جديد، كانت حجرة مجهزة بكل شيء، لم أكن أعاني مما أعانيه اليوم، كل ذلك كان سببًا في رضائي عن وضعي حتى تسرسبت مني الأيام، ووجدت نفسي وقد نقص من عمري خمسة وسبعون عامًا لم أعشها، للأسف علمت بذلك بعد فوات الأوان، بعدها تغير اعتقادى وإيمانى بأشياء كثيرة حتى هذه الرهبانية.

فأصبحت أؤمن الآن بعد أن ضاع عمري، أن الالتزام لا يأتي بأن نكون منعزلين عن مواضع الفتن والناس، وأن نتجرد من كل مشاعرنا ونتفرغ للعبادة، بل الإيمان أن نكون بشرًا كما أراد لنا الرب بكل احتياجاتنا، والتي نجاهد في أن نشبعها بما أراده الرب، لا أن نحرمها، وأن نتعرض للفتن ونتركها للرب، لا أن ننعزل دون أي اختبار حقيقي لنا، ليس هناك ملائكة إلا في السماء، نحن بشر يعترينا النقص...

حديث طويل، شعرت في أجزاء كثيرة منه أنني أسمع من فيلسوف له فلسفته الخاصة، لا من مسن معزول عن الحياة، قد جعلني أعيد النظر في بعض مفاهيمي، وتوافق أيضًا بشكل كامل مع بعض مفاهيمى، خاصة إيمانه الأخير بالرهبانية،

لكن ومع ذلك، في نهاية الحديث، كانت نفسي ما تزال تنازعني، ومع هذه المحاولات للفصل، تذكرت وقتها حديثًا لي سابقًا مع «مارسيل» كانت تحدثني فيه عن هدف الملجأ وهدف العاملين فيه، وقالت لي وقتها:

ـ وإن كنت أتلقى مقابلًا ماديًّا نتيجة عملي في الملجأ، إلا أن الراهبات، وعلى رأسهم المسئولة، لا يتلقون أي راتب، وأن شعار الملجأ هو «خدمة الإنسان فقط» بعيدًا عن أي شيء آخر.



تذكرت كلماتها، وهذا الشعار الذي جعلني أثمن دور الملجأ وأعظمه، لكنه على ما يبدو لا يوجد شيء دون مقابل، وليس بالضرورة أن يكون المقابل ماديًّا، فقد يكون تبشيرًا أو لهدف عقائدي، هكذا كان حديث نفسي الذي سرعان ما أتغلب عليه، ثم يعود فيغلبني، أحاول أن أقنع نفسي بغيره، ربما لتعلقي بالمكان وأهله، وأنهم بالفعل مجني عليهم وليسوا جناة، أو ربما أنني وثقت جدًّا في «مارسيل» فلا أحب أن أتخيل، لمجرد التخيل، أنها دون ثقتي بها..

لأول مرة وقد قاربت على الأسبوعين هنا، أشعر بأنني مسلم وسط جمع من المسيحيين، رغم أنني كنت أعلم تلك الحقيقة من أول يوم أتيت فيه، لكن الجديد هو أن هناك شيئًا قد استثار هذه العصبية والنزعة عندما كان حديثًا يمس الأديان، عندها قد نتنازل عن كل القواسم المشتركة بيننا في الإنسانية ونتشبث باختلافنا الوحيد، أن لكل واحد منا ديناً مختلفاً عن الآخر، مع أننا قد نكون بعيدين كل البعد عن تعاليم ديننا، وذلك في حد ذاته ترك واستهانة بما ندين، لكننا فقط نرى هذه الاستهانة عندما تأتي من معتنق دين آخر.

عاهدت نفسي أن أتعامل بنفس الروح التي أتيت بها، وألا أقع في نفس الخطأ الذي أنكره على الآخرين إن كنت متسقًا مع نفسي؛ فأخدم فقط الإنسان من أجل أنه إنسان، وأفترض دائمًا حسن النية إلى أن يظهر لي عكس ذلك، وليس من مجرد كلام لم يوثقه شواهد.

طوال هذا الحديث الذي كان بيني وبين «ألفونس» كان شبح المكان يتغشانا من وقت لآخر؛ فكنت أشعر بها عندما كانت تمر من خلفنا وتنظر إلينا لبرهة ثم تنصرف، كنت أشعر بذلك من حديث «ألفونس»



فكان يتلكأ فيه هنيهة وكأنه لا يريد أن يسمعها شيئًا من حديثه، فكنت أعلم وقتها بمرورها وأنها تتفقدنا من طرف خفي لذلك كنت متفهمًا، فكنت أنتظر «ألفونس» في تلكئِهِ.

في اليوم التالي لهذا الحديـث وأنا ذاهب إلى الملجأ كعادتي، كنت أهيئ نفسي أثناء ذهابي كـي أكون مثل كل يوم، محاولًا تناسي كل شيء قد يغير مـن طريقتي، فليـس لهؤلاء المسـنين أدنى ذنب حتـى أحرمهم من مجرد ابتسامة قد اعتادوا عليها مني قد تسعدهم.





(٥)

«فليس ثمة دفاع حقيقي عن الإنسانية وأنا ما زلت أرفض شرب كوب من الشاي؛ لأن من صنعه لي «نصراني»»!!





انقضى أسبوع وأنا على هذه الحالة وهو الثالث لي، حتى استسغت ما كنت أرغم عليه نفسي، وتناسيت ما أود نسيانه، وإن كان بشكل مؤقت؛ لعدم توافر ما يثير بداخلي ذلك، حتى جاء ذلك اليوم.

وكعادتي، أمُر أولًا على حجرة «مارسيل» عند قدومي، لكنها لم تكن كعادتها؛ حيث استقبالًا فاترًا دون ابتسامتها المعتادة وإن حاولت تصنعها، مرت معي ككل يوم على الحالات، لكن هذا اليوم من دون أي حديث بيننا، قبل المرور خرجت معي وكأنها تقضى واجبًا دون روح فيها، وفور انتهائنا، استأذنت دون أي حديث على غير العادة معي، اضطراب في المعاملة، في وقت كنت أجاهد نفسي فيه حتى لا أتغير في معاملاتى حتى لا أجرح أحدًا، فأجد الآخرين هم من تغيروا معي دونما سبب.

كنت أفكر في أن أذهب إليها لأسألها عن سبب ذلك، لكن نفسي كابرت، فقلت لن أذهب إليها لأسئلها، ما دمت لم أسئ إليها، لن أفرض نفسي على أحد.

أتى يوم آخر، ذهبت إلى الملجأ مبكرًا عن موعدي المعتاد، فقد سهرت طوال الليل أفكر في أمر «مارسيل» وأتذكر حديثي الأخير معها، لعلي قد أخطأت في شيء، فلم أجد إلا كل ود، هذه الحيرة جعلتني أذهب مبكرًا



لعلي أجدها؛ فأستوضح منها، فلن أستطيع أن أستمر على ماعقدت عليه من قبل.

لا أعلم لماذا رضخت نفسي لذلك وهي من تكابر دائمًا عندما لا تكون مخطئة، أهو لين القلب الذي يجعل العقل والنفس يتخليان عن بعض مبادئهما؟!

أتت في موعدها المعتاد، بعدما مللت التفكير في كيفية فتح حواري معها في وقت انتظاري الطويل، ما إن دخلت مكتبها حتى تعقبتها بالدخول، وعلى تعجل مني ودون مقدمات معتادة ألقيت لها ما في داخلي حتى أستريح وتهدأ ظنوني، فبدأتها بالحوار قائلًا:

ـ لو سمحتِ يا أستاذة، ممكن أعرف سبب تغيرك معي، هل كان مني خطأ؟

ـ هل أسأت إليكَ؟

ـ لم تسيئي، ولكنكِ على غير المعتاد معي.

ـ كل ما يربطنا هو مدة تكليفك وعملك في الملجأ، وهذا ليس فيه أي مشكلة، ولم يتعطل شيء، كل علاقتنا هي علاقة عمل، والعمل على ما يرام.

ردودها الجافة الصادمة زدات من انفعالي الداخلي بدلًا من أن تريحني كما كنت أريد من حواري إليها، انسحبت من أمامها غاضبًا جدًّا، فأنا لم أسئ إليها، ومع ذلك جئت استوضح منها؛ تمسكًا بعلاقتي معها وهي لا تكترث بي، وكأنها زاهدة في تلك العلاقة التي كانت ودية إلى حد كبير؛ مما زادني اغتياظًا ورغبة في الانتصار للنفس التي أشعر وكأنها كسرت بذهابي إليها فقابلتني بهذه الردود.



فاستدعت ذاكرتي كل ما يشعل غضبي، وخرج من تحت الركام ما كنت أجاهد أن أخفيه حتى لا يوغل صدري منهم، أو بالأخص «مارسيل» لكنني كنت أخفيه كي أبقى على بعض الود متحملًا ما يرفضه عقلي وما تربيت عليه بوازع من القلب؛ فأصبحت أرى أنه لا جدوى من أن أتحمل، وأحافظ على مشاعر من لم يحافظ على مشاعري، فعدت إليها بوجه مكفهر يقودني غيظي.

- كنت أتمنى أن يظل ظني كما هو، أنكم تخدمون الإنسان، من أجل الإنسان فقط،

- ماذا رأيت منا كي تقول هذا؟ نحن بالفعل نخدم الإنسان للإنسان، لا ننتظر مقابلًا من أحد.

- المقابل أحيانًا لا يكون مالًا، مقابلكم هو التبشير، هذا هو سبب خدمتكم.

«بدهشة مصطنعة للتدليل على أن كلامي مخالف للمنطق»..

قالت:

- وهل ترى البشارة مقابلًا ننتفع به؟! بل هي الخدمة الكبرى التي نقدمها للبشرية، أن نكون اتصالهم ومعرفتهم بالرب.

- أي رب يا صديقتي؟! الرب الذي تعتقدين؟! الذي يختلف معكِ فيه من يعتقد غير اعتقادكِ؟ الإنسانية أوسع وأشمل، الإنسانية الرباط المجمع الذي لا خلاف عليه.

- والإنسان يا صديقي دون دين ليس له قيمة.



ـ بل الدين لن يقام إلا بالإنسان، الإنسان هو محور الكون، وهو مناط التكليف، وهو المؤدي لشعائر الدين، قد أتى الدين للإنسان، فهدف الدين هو حفظ دماء الإنسان وحفظ ماله وكرامته.

ـ نحن نعمل للدين؛ لأن الدين هو الغاية.

ـ الدين وسيلة للتقرب إلى الله، ولجعل حياة الإنسان أفضل في الدنيا قبل الآخرة، عندما جُعل غاية أصبح الهدف هو زيادة أعداد المعتنقين على الملتزمين، كان الأولى من البحث عن معتنقين جدد هو تربية المعتنقين القدامى على دينهم الذي هم عليه، الكيف وليس الكم سيدتى.

ـ للأسف يا صديقي! أنت تتحدث بطائفية وترفض لنا ما هو متاح لكم، أوليس للأزهر مبتعثون في معظم دول العالم لنشر الدين الإسلامي؟

ـ نعم يا صديقتي، لكنهم يعلنون عن أهدافهم، والكل يعلم دور الأزهر، لا يخفون أهدافهم وراء ستار فعل الخير.

ـ أنت ترفض فقط الوسيلة، التي أراها أنا أنها وسيلة سامية لغرض نبيل، وسيلتنا هي أننا أوينا هؤلاء العجزة والمسنين في الملاجئ، وأننا قدمنا خدمة طبية لمن لا يستطيعون، وأننا قدمنا خدمة تعليمية راقية، فهل تلومنا على ذلك؟

ـ كل هذا سيكون أرقى لو كان فقط من أجل الإنسان، ألا تكفي صفة الإنسانية وحدها سموًّا؟ ثم إنني لا أعلم ما العائد على المسيحية بضم هؤلاء المسنين! ما الذي من الممكن أن يقدموه؟! ليس أظلم من استغلال الاحتياج وهم محتاجون، هم محتاجون الحياة الكريمة التي أرادها لهم الدين وليس اعتناق دين آخر.



ـ يا صديقي لا تتخفَّ وراء الإنسانية، أنت لا ترى ملامح وجهك وأنت تتحدث، كل ما يغضبك فقط أنك مسلم تحمل مشاعر سلبية تجاه دين آخر غير دينك، لا تحب له أن يدعو البشر إليه، مشاعر غيرة طبيعية لا أنكرها عليك، لكن ما أنكره هو محاولة صبغتها بالدفاع عن الإنسانية؛ لأنك بداخلك أيضًا تفرق بين الإنسان على أساس دينه. وإلا لِمَ تتأفف منذ دخولك هذا الملجأ أن تحتسي من «البوفيه» كوبًا من الشاي؟ أنا أعلم لماذا؛ لأن من يصنعه لك مسيحي، وأعلم أن أكثركم يتأفف من ذلك.

ـ أرى أنكِ تخرجين من حوارنا الأساسي لأشياء طائفية لم تكن هي هدفي من الأساس.

ـ بل هي الأساس، لو كانت الدعوة هنا لدينك الإسلام، لكنت بررت لنفسك، ولكن الأمر اختلف؛ فقد جاء ما أغضبك مع ما هو ضد معتقدك.

انتهى حديثنا الذي قد أحدث تصدعًا في علاقتنا التي استمرت لوقت ليس بالقصير متميزة جدًّا؛ فقد تجمعنا من قبل على الإنسانية ومناصرة الإنسان أيًّا ما كان دينه، لكننا اختلفنا عندما فكرنا بعد نُصرتِهِ إلى أي وجهة سيكون دينه.

انتهى الحديث، لكن ما زال كلامها الأخير عالقًا بذهني، فانا أعلم ما بداخلي حتى ولو حاولت أن يكون خارجي شيئًا آخر، أعلم أنه في وقت ما اختلطت مشاعري بما هو دفاع عن الإنسان، وما هو دفاع عن الإسلام ضد هجمة تبشيرية، هكذا وصفتها بداخلي، وتعاملت على ذلك وإن حاولت أن أظهر العكس، فليس ثمة دفاع حقيقي عن الإنسانية وأنا ما زلت أرفض شرب كوب من الشاي؛ لأن من صنعه لي «نصراني»..



انتهى حوارنا، بل تناظرنا الفكري، ذلك التناظر الذي لم يكن عن طيب نفس للوصول لنقاط الالتقاء والتجمع، بل هو النبش في مواضع الاختلاف بدافع من خلاف سابق، وطفو لما كان في أعماق القلوب، وظهور ما كنا نتكلف إخفاءه، ففي كثير من الأحيان نتحدث بما يحب الآخر سماعه وليس بما نعتقد؛ استرضاءً له، أما وإن أصبح ذلك الاسترضاء بلا جدوى، ومع مثيرات خروج تلك النزعة الطائفية الموجودة بالطبع في كل واحد منا بنسبة ما، فلا دافع هنالك للتحمل.

أعترف بأنني لم أكن مستعدًّا للاقتناع بما قالت، وأعتقد أنها أيضًا كذلك، وهذا أننا نعتبر الاقتناع بوجهة نظر الآخر هزيمة، فكيف يقبل أحدنا أن يُهزم دينه من منطلق فهمنا هذا؟

فدائمًا ما تكون مناظراتنا لإثبات خطأ الآخر وليس للوصول للحقيقة.

ما كنت أحب أن أخوض فيما خضته معها، لكنه الاغتياظ، والذي تولد من كونها ذات أهمية لدي، فلو كانت شيئًا عاديًّا ما كنت لأبالي بطريقة معاملتها التي اختلفت، فدائمًا يكون العتاب دليلًا دامغًا على تمسكنا بمن نعاتب.

فمن هذا الاغتياظ والضيق ظهرت حقيقتي لنفسي، أن اهتمامي الكبير بتغير حالها معي ليس بدافع خوفي على الملجأ، وما كنا نقوم به لخدمة النزلاء، وإن كان في ذلك بعض الحقيقة؛ ذلك لتعاهدنا رسم البسمة على شفاه النزلاء، لكن تبقى الحقيقة الكاملة، أن اهتمامي بدافع من شيء قد نبت في القلب تجاهها، هذا ما بدا لي جليًّا من استيائي الشديد من ذلك الاضطراب في العلاقة.



كان هناك بالفعل بعض الانعكاسات لما حدث بيننا على نزلاء الملجأ، لم أستطع الفصل بين هذا وذاك، كنت أتكلف الابتسامات التي اعتادوا عليها؛ وهو ما كنت أتغلب فيه على نفسي مرة، ويغلبني حالي وضيقي في مرة أخرى؛ فلا أستطيع إلا أن أبدي ما أشعر به؛ فيظهر وجهي الضاجر لأناس ليس لهم أي ذنب لما أنا فيه.

مع أنها قالت لي: إن عملنا في الملجأ لن يؤثر عليه أي شيء وهو على ما يرام، إلا أنني في هذه الخمسة أيام التي انقضت ونحن على هذه الحالة، كنت غير منتظم كالسابق بمروري على كل المسنين والتسامر معهم، وكنت لا أمر على مكتب»مارسيل» عند مجيئي حتى تصطحبني في هذه الجولة الصباحية عليهم، رغم علمي أنها لن ترفض ذلك، إلا أنني كنت لا أفعل، ربما إمعانًا في أن أظهر استيائي لها، وأن ذلك سيؤثر حتى على ما كنا نفعله من قبل، وكأنني أدلل بالفعل على أن حزني الأكبر كان على تلك العلاقة التي راقت لي وليس على ما كنا نفعله مع نزلاء الملجأ، وإلا لكنت ذهبت إليها كما كنت أفعل كل صباح حتى نمر عليهم، وأرتضي بأي طريقة تفضلها في التعامل معي ما دام ما نصبو إليه من خير يتم، ولا أعفيها أيضًا كذلك من الخطأ مثلي، فهي أيضًا كابرت، وتنتظر أن أدعوها ولم تسأل عما اتفقنا عليه، كذلك هي النفوس، عندما تنتصر لنفسها دون أي حساب لأي شيء آخر..

في ذلك اليوم أيضًا كنت ـ كعادتي ـ جالسًا بين «ألفونس وكرستين» بينهما كنت بالجسد وفكرًا شاردًا، فكان من السهل على من رآني من قبل وأنا على طبيعتي أن يعلم أن هناك أمرًا ما بداخلي، فلم أستطع إثارة ألفونس بأسئلتى التي كانت تحفزه على الحديث كما كان يقول لي عندما أصمت أو أنهك من كثرة الحديث:



ـ «أسألني وحدثني، فأنا لا أجيد فتح موضوع للحوار».

يبدو أن معالم وجهي في ذلك اليوم كانت واضحة فاضحة جدًّا لحالي، حتى عن أي يوم مر؛ هذا ما جعل «ألفونس» يقاوم صمتَه ويبدأ هو بالحديث، بل بدأني بهزة لم تكن بيده لجسدي، بل من فاهه لعقلي، أن يعيد التفكير فيما يستحق الحزن وما هو أدنى من ذلك، فقال لي بنبرة استياء وكأنه ينكر عليّ ضيقي وحزني:

ـ لماذا تحزن؟ وعلى أي شيء تحزن؟ ليس لك أن تحزن ما دمت لا تسكن هذا الملجأ.

ثم أردف بالأسباب قبل أن أتفوه بأي شيء، بطريقة تظهر مدى قهره وألمه الداخلي:

ـ في هذا الملجأ عرفنا أن الترف، كل الترف في أنك صاحب الاختيار في حياتك، وإن كانت خياراتك بين المحدود.

تختار أن تذهب أو لا تذهب، ونحن ماكثون لا حيلة لنا سوى الانتظار عل أحدًا يأتي لزيارتنا.

تأكل عندما تجوع، ونحن نأكل وقت أن تأتينا الوجبة، فضلًا عن أنك تختار أيضًا ما تأكله، بينما نأكل ما يُطهى لنا.

لنا موعد للنوم، وموعد للاستيقاظ، فلا يجوز للأحلام السعيدة أن تطيل غفوتها علينا؛ لأنها حتمًا ستقطع بسيف أجراس الاستيقاظ الإجباري.

قل لي على أي شيء تحزن؟! أنت في نعمة مهما كانت مشكلاتك.



كلمات، كان لها على رأسي وقع طرق المطرقة، نبهتني إلى نعم قد اعتدت عليها لأنها دائمًا معي؛ فحسبتها مسلمات، لم أتخيل حياتي بدونها، فأحياناً انتظارنا لأشياء نتمناها تنسينا فرحة الأشياء المتاحة لدينا التي قد يكون محرومًا منها أناس آخرون هي جل ما يتمنون.

أومأت إليه برأسي اتفاقًا مع ما قال،:

ـ نعم، أنا في ترف رغم كل مشكلاتي، الصبر صبركم أنتم، أضحك على نفسي التي اختزلت كل الدنيا في مشكلة صغيرة.

رد قائلًا:

ـ الدنيا بتفاصيلها أكبر من أن تقف على مشكلة.

قلت.. متعجباً

ـ بل أحيانًا تقف حياة بعض الناس عند مشكلة ما؛ فلا يجدون لها حلًّا سوى الانتحار.

ـ إذاً بهذه المقايس فنحن أبطال، فبرغم هذا السوء صابرون، ولا أحد هنا يُفكر في الانتحار.

ـ هل هذا رضاً منكم بما أنتم عليه..؟

ـ بل انتظاراً ليتغير ما نحن عليه، إننا لم نحْيَ حتى نموت، كل ارتباطنا بالحياة أننا فقط مقيدون في سجلها أحياء، ننتظر، عل الفرج يأتي فيما تبقى من أيام، ثم إننا لم نتخذ قرارًا واحدًا في حياتنا بمحض إرادتنا، أيكون أول قرارنا هو أن نموت؟!

لا ينتحر إلا من قد حيا بالفعل، بل أحيانًا يكون انتحاره مللًا من الحياة، ونحن مللنا من الموت على قيد الحياة!.



حديث جعلني أعيد النظر في كثير من المفاهيم، بل جعلني أستصغر كل مشكلاتي عندما أقارن حالي بهم، فأحيانًا لا ندرك قيمة النور الذي نعيش فيه واعتدنا عليه إلا بعد مرورنا بالظلام.



(٦)

«تعجبت جدًّا أن يكون ذلك مبلغ علم راهبة عن شاب مسلم، هو أن يضحك على فتاة مسيحية ويجعلها تترك أهلها ودينها»





مرت أيام أخر، أتممت شهري الأول من شهري التكليف.

على غير عادتها، أشارت إليّ من بعيد وأنا جالس بين «ألفونس وكرستين» فذهبت إليها وفضولي أن أعرف سبب طلبها لي يسبقني؛ حيث أنني لا أتذكر أن حدثتها غير تلك المرة الأولى في أول يوم لمجيئي وفجعتي التي لا تُنسى.

وصلت إليها، وبعفويتها وتلقائية حديثها المعتاد الذي أسمعه مع كل من في الملجأ، طلبت مني طلبًا لم أكن أتوقعه.

ـ أستاذ «مازن»، ممكن مساعدة لو سمحت؟

ـ تحت أمرك اتفضلي

ـ معلش يعني هي حاجه كدا مش قد مقامك، بس انت زي ابني والله ولو مش حابب خلاص.

ـ ولا يهمك تحت أمرك في أي شيء أؤمريني بس.

ـ الأمر لله، ربنا يحفظك يا رب، معلش لو فيها رزاله مني عايزاك تيجي معايا، هانجيب شوية حاجات للمطبخ ضروري عشان الشيف «مايكل» بيستعجلني، وعم «منصور» السواق بيجيب حاجات تانية بعربية الملجأ.



لم أستطع إلا أن أوافق، رغم أن المساعدة تبدو وأنها ستكون شاقة وأنا في أول اليوم في الصباح، لكنني ما اعتدت أن أرفض طلبًا لكبير يحتاج المساعدة، وسيف حيائي يمنعني أيضًا من الرفض؛ فوافقتها سريعًا بعد أن سألتها هل يجوز لي الخروج في وقت تكليفي؛ أملًا في عذر يرفع عني حرج الرفض.

لكنها أيضًا قد رتبت لذلك.

ـ لا ما تقلقش ما دا برضه شغل تبع الملجأ، وأنا قلت للأم «مارية» إني هاطلب منك فوافقت.

قلت في نفسي تود الأم «مارية» أن لو كنت في كل يوم معكِ في السوق على أن أبقى مع المسنين في الملجأ.

خرجنا سويًّا من الملجأ، ما إن خرجنا حتى تحدثت إليَّ وكأنها كانت لا تريد سوى أن نكون بالخارج.

ـ بصراحه يا أستاذ «مازن» انا أخترعت حوار السوق دا عشان عايزة أقولك على حاجة ضروري، بس اوعي كلامي دا يخرج بره ماشي؟ أنا هاقولك بس عشان أنا بعزك وأنت زي ابني، وكمان بصراحة بقى إحنا مسلمين زي بعض.

ـ قولي أنا سامعك وكلامك عمره ما هيخرج بره أبدًا.

ـ تمام، بص يا أستاذ «مازن» أنا عارفة إنك زعلان شوية من أستاذه «مارسيل» بس معلش لازم تعذرها لأنها غصب عنها والله.

ـ ازاي غصب عنها يعني؟ ممكن توضحيلي.



ـ أنا بصراحة كنت بنضف فوق جنب مكتب الأم «مارية» واستدعت

«مارسيل» فوق عندها وزعقت معاها جامد أوي إنها بتقف وتتكلم معاك كتير، وقالتلها كلام بصراحه جرحها جدًّا لدرجة إن»مارسيل» كانت بتمسح دموعها وهي نازله من مكتب الأم «مارية».

ـ إيه هو الكلام اللي جرحها؟ سمعتيه؟

ـ بصراحة مش كله، بس كان عن إنك مسلم، ودايمًا الشباب المسلم ممكن يضحك على بنت مسيحية ويخليها تسيب أهلها ودينها عشانه، فاعذرها بقى لإن الكلام جامد عليها، وكمان كراهبة لازم يسمعوا كلامها هنا، وأنا كمسلمة زيك قلت أقولك لإننا مالناش غير بعض في الآخر، زي ما «مارسيل» رغم إنها كويسة جدًّا، لكن في الآخر لازم تسمع كلام الراهبة بتاعتهم.

تعجبت جدًّا أن يكون ذلك مبلغ علم راهبة عن شاب مسلم، هو أن يضحك على فتاة مسيحية ويجعلها تترك أهلها ودينها

أتفهم أن يكون كلام العامة «كغالية» فكان أكبر دافع لها لأن تقول لي:

« أنا كمسلمة زيك قلت أقولك لإننا مالناش غير بعض في الآخر»، وكأن لا رابطة سوى الدين!؟ وكأن جنسيتنا الواحدة ليست كافية لتكون رباطنا الذى يوحدنا،.. للأسف! هذا هو المفهوم السائد لدى الكثير من العامة، وأحيانًا غير العامة، مثل ما كنت عليه في وقت ما وأنا أدعي قبول الآخر والفهم، وهذه هي الحقيقة التي في الصدور ونخفيها خلف شعارات رنانة.



ارتحت كثيرًا قدر استغرابي، فقد علمت ذلك السبب الذي ظل يشغلني لأيام، ووجدت العذر الذي كنت أبحث عنه «لمارسيل» وحقًّا إنه لعذر يغفر لها.



(٧)

«ما هذا السبب والظرف العظيم الذي يجعلنا نفعل هكذا مع من جذبونا بذراعيهم على صدورهم عطفًا وحنانًا، نحملهم بأذرعنا إلى الملاجئ بعدما أصبحوا طغمة على صدورنا؟!»





رأيتها في ذلك اليوم على غير حالها المعتاد، فقد أشرقت شمس وجهها بفعل ابتسامتها التي رأيتها أيضًا لأول مرة، لم تكن سارحة في ملكوتها الخاص، بل معه بكل جوراحها، سألت نفسي متعجبًا، من هذا الذي استطاع أن يستأثرها من عزلتها؟ من هذا الذي رأت فيه أنه الجدير الوحيد بنظراتها التي كانت دائمًا ما تنظر إلى شيء لا نراه، ورأته الجدير أيضًا بسماعها، فهي تميل بأذنيها عليه، لا تريد أن تتفلت كلمة واحدة من حديثه لها، يكون كيفما يكون، الأهم أن مشهدها هذا كان كفيلًا بأن ينسيني ما أهمني، حتى تلك المشكلة التي كانت بيني وبين «مارسيل» ولمَ لا؟ فقد كان وجهها الحزين دائمًا لا يفارقني، وحالة صرعها المتكررة على البوابات لا أنساها مع ضعف حيلتي أن أستطيع تقديم أي مساعدة لها تُخرجها مما فيه دائمًا..

سعادة أفتُتح بها يومي، كنت أتمنى أن تستمر ليس لي، بل له في الأساس، وبالطبع سأكون سعيدًا، لكن هذا هو حال الملجأ الذي ربما لن يتغير، ففي منتصف اليوم، كانت صرخاتها وهي تتعلق بهذا الشاب وهو يغادر من البوابة، ومن خلفها أمن البوابة يجذبونها للداخل، كانت تتعلق به وكأنها تتعلق بالروح التي تنتزع منها لتعود إلى الموت، ما كان مني إلا أن هرولت إلى البوابة أتقصى الخبر، محاولًا المساعدة وتهدئتها،



ذهبت نحو ذلك الشاب دون محاولة مني لمعرفة شخصه وصلته بالحاجة «أمينة» فقط كان رجائي له بأن يدخل مرة أخرى رحمة بحالها أولًا، ثم بعد ذلك أي شيء آخر بعد هدوئها إن أراد الرحيل فليرحل، وافقني دونما اعتراض، وعلى ملامحه الطيبة تبدو قلة الحيلة والضعف اللذين بدوا مع اغروراق عينيه بمسحة دمع تجاهد السقوط.

عادا وجلسا على نفس المقعد الذي كانا عليه وهي تمسك بذراعيه، وتضع وجهها على كتفه، من طيلة وضعها هذا غلبها النوم، أتاها النعاس مطمئنة أنه بين يديها، كالطفلة التي تنام حاضنة دميتها، تخشى أن يأخذها أحد منها، فكيف بأم تكون مع ابنها الوحيد وكل معارفها بالدنيا! نعم ابنها، ذلك ما صعقني عندما علمت به من أحد حراس الأمن، لم أصعق من حالها معه، فهذا شعور الأمومة الذي لا يضاهيه شعور، وإنما من كونه ابنها الوحيد وكل معارفها في الدنيا ويتركها وحيدة في هذا الملجأ الكئيب على هذه الحال التي يرثى لها.

ما إن غلبها النعاس مطمئنة حتى جاءته الفرصة لأن ينسلخ منها ويرحل في نومها بأقل القليل من تأنيب الضمير والذي كان في أشده عند صراخها وتعلقها به وهو يريد الخروج.

كنت أراه وهو يحاول أن يخرج يده من قبضتها في حذر أن تصحو، وكأنه يخرج منها لا من الملجأ، وهو يضع رأسها التي كانت فوق كتفه على طرف من أطراف المقعد الطويل الذي كانا عليه ويرفع قدمها بهدوء على الطرف الآخر ليتركها نائمة ويخرج هو متسللًا من باب الملجأ دون ضجيج من أمه يؤرق ضميره.

تساءلت في نفسي، ما هذا السبب والظرف العظيم الذي يجعلنا نفعل



هكذا مع من جذبونا بذراعيهم على صدورهم عطفًا وحنانًا، نحملهم بأذرعنا إلى الملاجئ بعدما أصبحوا طغمة على صدورنا؟! كيف يكون هذا؟! كيف تُقابل قمة التضحية بأقسى أنواع النكران؟! لا أجد مبررًا في نفسي ولا سببًا يجعلني ألتمس عذرًا لمن يفعل ذلك، حتى وإن كان بعض القسوة من الأبوين أو أحدهما على ابنيهما في صغره.





(٨)

«أما تعانق شـيخ الأزهر والبابا الذي يحدث كل عام في الأعيـاد، ما هـو إلا صورة تقترب فيها الأجسـاد لضرورة اللقطـة، بينـما النفـوس تحمـل الكثير مـن الألغـام تنتظر الاشتعال»





مشهد الحاجة «أمينة» وما سببه بداخلي من ألم، علاوة على كلام «ألفونس» الذي جعلني أحتقر مشكلتي، مقارنة بما يعانيه نزلاء الملجأ، كل ذلك جعلني أعيد تفكيري في أولوياتي، وأن أتخلى عن أنانيتي وذاتي، والعمل فقط لهؤلاء المسنين الذين لا حول لهم ولاقوة، فالأمر أكبر بكثير من أن يتعطل تفكيري عند صديقة قد تغير أسلوبها معي، وهناك من يُحرم من أبسط حاجته الدنيوية كبشر.

عقدت العزم على الذهاب لـ «مارسيل» لكن هذه المرة ليس لغرض ذاتي، ولكن طالبًا منها المساعدة للعمل معي قدر المستطاع لتحسين ظروف معيشة وإقامة أولئك النزلاء، أو إقامة أي عمل من شأنه رسم البسمة على وجوه هؤلاء البؤساء، غير مكترث بأي طريقة ستعاملني بها، الأهم فقط هو تحقيق ذلك الهدف الإنساني، لا سيما أنني أيضًا قد علمت حقيقة ذلك التحول، وأنها مكرهة على ذلك وليس عن شيء قد حدث مني.

ولا أحب أن أكون سببًا يضعها في حرج مع إدارة الملجأ، خاصة من الأم «مارية».

فكرت قليلًا في أن يكون غيرها سندًا ومعاونًا لي فيما عقدت عليه



العزم، لكنني وجدتها الأشد اقتناعًا وتلبية في ذلك الشأن، وكل ما يهمني الآن هم أولئك المسنون، فكيف أتنازل أو أزهد في وسيلة ستحقق لي ذلك الهدف! لا سيما أنه أيضًا هدف إنساني نبيل وليس ذاتيًّا؛ لذلك لم أتردد ثانية واحدة في الذهاب إليها.

دخلت عليها وهي في مكتبها بعد أن أذنت لي، ما إن دخلت حتى بادرتها بأسفي لما كان مني من حديث حاد، وتشكيكي في نواياها ونوايا العاملين بالملجأ، اعتذار ليس ناتجًا عن معرفة الحق؛ ومن ثم العدول عن الباطل، ولكن لتجاوز تلك الأزمة لغرض يستحق التسامي والترفع عن الصغائر.

ثم أردفت لها بعد أسفي:

ـ أتيت لكِ فقط لذلك الهدف الذي من أجله نحن هنا، هم أولئك المسنون، راغبًا عونك في محاولات مساعدتهم ورسم البسمة على شفاههم، متجاوزًا كل مواطن الاختلاف بذلك الرباط المجمع الذي لا خلاف عليه وهو الإنسان، ليس لي حاجة عندك غير ذلك.

قاطعت استطرادي برد أثلج صدري:

ـ لا تثريب عليك يا صديقي، إن كان اعتذار فهو حتمًا مني إليك على ما كان مني من تحول غير مسبب، لكنك في يوم ما ستعلم سر ذلك، وأظنك ستعذرني.

لا تثريب عليك أيضًا في غيرتك ونزعتك إلى دينك، فهو أيضًا ما حدث معي، على الرغم من أنني أرثوذكسية أختلف في كثير من أمور العقيدة مع معظم راهبي الملجأ وبالضرورة مع الأم «مارية» لكنه ذلك



التعصب الذي يسكن دواخلنا ويخرج بمجرد إثارته، لكن على أية حال من الطيب أن يخرج كل ذلك ويبدي كل منا للآخر ما يسيئه منه، حتى لا تظل تلك الأشياء في الصدور متأججة؛ فتخرج وقت الضغينة بدافع من الغيظ وليس في منافشة يطرح كل منا فيها وجهة نظره دونما إفساد للود، فلن يكون صفاء كامل إلا إذا أخرج كل منا ما في نفسه للآخر، أما تعانق شيخ الأزهر والبابا الذي يحدث كل عام في الأعياد، ما هو إلا صورة تقترب فيها الأجساد لضرورة اللقطة، بينما النفوس تحمل الكثير من الألغام تنتظر الاشتعال.

استدركت كلامها سريعًا..

الأهم الآن هو ما جئت من أجله، هؤلاء المسنين، أنا معك في أي شيء يكون لهم بكل ما أستطيع من قوة.

ـ هذا ظني بكِ وما كنت أتوقعه.

ففاجأتني سريعًا بطلبها:

ـ أعطني رقم هاتفك.

تعجبت من طلبها غير المتوقع، فسألتها علني سمعت خطأً.

ـ نعم حضرتك؟!

ـ رقم هاتفك، إن كان ذلك متاحًا دون حرج.

ـ طبعًا طبعًا بكل سرور.

تكلمت في عجالة، وكأنها تريد أن تنهي حوارنا قبل أن يأتي أحد.

فختمت كلامها وهي تتحرك إلى خارج مكتبها.



ـ انتظر اليوم مني مكالمة نتحدث فيها عما سنفعله في الأيام القادمة.

طلبها لرقمي كان له بالغ النشوة والسعادة عليّ مع الكثير من التفكير عن السبب، أهو فقط من أجل الاتفاق عما سنقوم بتنفيذه لاحقًا؟!

أم هناك أمراً آخراً ستحدثني عنه؟ على أية، حال هو تطور إيجابي في علاقتنا، وتجاوز لمرحلة الفتور التي أساءتني من قبل.

بعد عودتي من الملجأ إلى منزلي، دائمًا ما كنت أضع الهاتف بجواري أينما كنت، وأنا أغير ملابسي، وحتى وأنا أتناول طعامي؛ خوفًا من أن تأتي تلك المهاتفة المنتَظَرة وأنا بعيد عن هاتفي، في الغالب، كنت أنسى هاتفي في بنطالي الذي أتيت به من الخارج، أو أتناساه عمدًا للراحة، إلا ذلك اليوم كنت حريصًا على تذكره وحمله في كل مكان أكون فيه، اهتمامي بتلك المكالمة وانتظارها يعكس اهتمامي بصاحبتها في المقام الأول.

لكنني سرعان ما تداركت لهفتي هذه، وأخذت أحدث نفسي وأذكرها بسبب الاتصال، وهو الاتفاق عما سنقوم به من أجل نزلاء الملجأ، حتى يكون كل شيء في نِصابه الطبيعي، ولا أنتظر أكثر من ذلك فيخيب ظني.

خرج ذلك الرنين الذي تنتظره الأذن، والذي أكده البصر أنه هو، عندما نظرت إلى شاشة هاتفي، وجدت الرقم غريبًا دون اسم محفوظ من قبل؛ فصدق توقعي.

في بداية حديثها أكدت على اعتذارها، وأن لها عذرها الكبير، وهو ما كنت تفهمته بشدة من حديثي مع «غالية»

تبادلنا الرؤى حول الملجأ، وما يحتاجه النزلاء هناك، اتفقنا على خطة عمل تكون في الأيام القادمة، تبدأ بكل ما هو ضروري، بعد حصرنا



لأهم احتياجات أهل الملجأ، وجدنا أهمها، هو أمر طعامهم والذي زاد استياؤهم منه في الأيام الأخيرة، والأمر الثاني هو محاولة كسر الروتين القاتل في يومهم في الملجأ، ومحاولة ابتكار أعمال أخرى يشاركون فيها، وتنظيم رحلة أو ما شابه ذلك للخروج بهم خارج الملجأ لمن يرغب منهم وحالته تسمح بذلك، واتفقنا أيضًا على الاحتفال معهم بعيد الميلاد؛ حيث إنه المناسبة الأقرب، والأكبر عند الجميع منهم.

لكن ما وجدناه يحتاج للتعجيل بشكل فوري، هو حال الحاجة «أمينة» فحالها يخلع القلب، اتفقنا «أنا ومارسيل» على مهاتفة ابنها المهندس «عمر» والاتفاق معه على موعد عاجل نتقابل فيه، ونحاول إقناعه بأخذ أمه من الملجأ، ولا بد أن يكون ذلك الاتصال والمقابلة شديدة السرية ونطلب منه ذلك، حتى لا تعرقل الأم «مارية» جهودنا، وخاصة بعد علمي من «مارسيل» أن للأم مصلحة كبيرة في وجود الحاجة «أمينة» داخل الملجأ؛ حيث المبلغ الكبير الذي يدفعه ابنها شهريًّا على هيئة تبرعات للملجأ، ظنًّا منه أنه بذلك يوفي أمه حقها ولا يعلم أنها تتعذب به ولا يصل منه شيء لها وإن وصل، ما الذي يمكن أن يعوض بُعد الابن عن أمه، وعن أن تكون بجوار من تحب؟!

كما اتفقنا على إبلاغ الأم «مارية» بما نود فعله من برنامج حتى تكون معنا فى الصورة ولا تشعر أننا نتعداها، حتى لا نستعديها لكن بالطبع لن نبلغها بما سنفعل فى حالة الحاجة «أمينة» وسيكون ذلك فى الغد ونجلس معها أنا و«مارسيل» قررنا مهاتفة المهندس «عمر» وأن أقوم بهذه المهمة على أن يكون ذلك في نفس اليوم الذى اتفقنا فيه، حتى نأخذ زمام المبادرة ونعجل.



هاتفت المهندس «عمر» عملًا بما اتفقنا عليه، ما إن صرحت له أنني أحدثه بشأن أمه وأنني أحد المرشدين النفسيين في الملجأ، حتى بدا لي اهتمامه من تركيزه معي أثناء حديثي، ثم أبدى قبوله الفوري لطلبي، أنني والأستاذة «مارسيل» المرشدة النفسية للملجأ نريد مقابلته خارج الملجأ لأمر هام يخص والدته، تبقى فقط الموعد والمكان، والذي استأذنته أن أبلغه به بعد ترتيبه مع الأستاذة «مارسيل» بعدما عرفت منه الأوقات المتاحة له.

لم أضيع وقتًا، اتصلت عقب ذلك مباشرة بـ«مارسيل» أبلغها بقبوله وأنه متفرغ من بعد موعد عودته من عمله في الرابعة عصرًا من كل يوم، وهو تقريبًا نفس موعد انتهاء عمل الأستاذة «مارسيل» في الملجأ وأيضًا انصرافي؛ حيث إنني كمكلف ينطبق عليّ نفس مواعيد حضور وانصراف العاملين هناك.

كان رد «مارسيل» أن يكون الموعد الغد في الخامسة بكافيه «مازيكا» الذي لا يبعد عن الملجأ كثيرًا.

راق لي جدًّا تعجلها والذي كنت أتمناه، والذى كان لابد أن يتوافق معها.

سريعًا وتداركًا للوقت، وقبل ألا أستطيع الاتصال بالمهندس «عمر» حيث الساعة الآن التاسعة والنصف، وأخشى أن تأتي العاشرة؛ فيكون هناك حرج في الاتصال.

اتصلت عليه في التو، ودون انتظار طويل للرد، كان رده مع بداية رنيني عليه وكأنه أيضًا كان منتظرًا لمعاودة اتصالي كي أخبره بالموعد والمكان.



فكان منه القبول الفوري دونما أي تردد.

هذا الاهتمام الواضح منه خلال محادثتي معه وقبوله الفوري لمقابلتنا، دون كثرة استفسارات، دلل على معدنه الطيب، وأن بداخله الكثير من الخير تجاه أمه، كان ذلك ظاهرًا في وجهه عندما كان بجوار أمه، ومن الأمتعة الكثيرة جدًّا التي جاء بها يحملها إلى أمه أثناء زيارته لها، ظنًّا منه أنه بذلك يكفر عن تركه لها، لكن هناك الكثير من الأشياء المعنوية، ومن احتياجات الأنفس لا تستطيع المادة أن تسد مكانها، لكن على أية حال، فالإنسان الذي يحب أن يكفِّر أو يصحح شيئًا من خطئه، لا يُعدم منه الخير، فما زالت نفس لوامة بداخله، وثمة ضمير حي ينازعه؛ لأنه قد اعترف ضمنيًّا بخطئه، فلا يكفر عن خطئه سوى من اقتنع به، لا من يكابر.

لكن ربما هناك أمر آخر هو ما أجبره على ذلك، بالتأكيد سنعلمه منه في الغد، ونحاول تذليله له؛ حيث لا أهم من احتواء أم، قد بلغ بها من الكبر عتيًّا.





(٩)

«بعض الحُكام المتسلطين فى بلادهم، لا يُصلحون ويحاربون كل من ينادى أو يقوم بإصلاح ظناً منهم أنه ينازعهم ملكهم»





تقابلنا فى الصباح، ذهبنا سـويا إلى حجـرة الأم «مارية» حتى نبلغها بـما نود تنفيذه بعـد موافقتها بالطبع «هكذا أوضحنا لهـا حتى نتقى عدم موافقتها»

لكن ردها كان واضحاً من بداية أسقبالها لنا بوجه عبوس قبل أن تسمع منا حتى كلمة فهى عازمة فى قرارة نفسها على رفض أى شيئ أيما كان

تحدثنا إليها بما نريد... فكان أول صدود منها بعد استطرادنا أنها قالت:

ـ هل هذا إعلام لى أم استذان.. ؟!

ردت «مارسيل» فى عجل:

ـ بل استئذان فأنتِ الأم الراعية المسئولة عن الملجأ

ردت عليها:

ـ وأنا غير موافقة

طلبت منها إبداء أسباب رفضها، فردت بحدة وكأنها لا تُسأل عما تفعل



ـ ليس لك هذا، قد رُفض اقتراحكم

خرجنا من عندها يائسين، قد خاب سعينا، لا أدرى ماهو سبب رفضها، كيف يترك الأمر كله لها، كنت قد تمالكت نفسي أن تتفلت من طريقتها المستفزة وديكتاتوريتها المتسلطة، لكن «مارسيل» تحاشت كل ذلك بأن أنهت لقائنا على أن سيكون ما أرادت ثم اسئذنتها فى انصرافنا.

ذكّرنى تعنتها على مطالبنا البسيطة الهادفة بما يفعله بعض الحُكام المتسلطين فى بلادهم، لا يُصلحون ويحاربون كل من ينادى أو يقوم بإصلاح ظناً منهم أنه ينازعهم ملكهم، كذلك هى، ترى أن الملجأ إرثها بمن فيه من نزلاء.

كان رجائنا الأخير أن يتم موعدنا الآخر مع المهندس «عمر» فما لا يدرك كله لا يترك جله.

فى تمام الخامسة، كنت هناك أول من حضر، فانضم إليَّ المهندس «عمر» بعد ذلك تقريبًا بخمس دقائق، و«مارسيل» بعده بحوالي دقيقتين تقريبًا.

حدثناه عن حالة أمه والتي تزداد سوءًا لبعده عنها، ذكرناه أنها من الممكن أن تكون في أيامها الأخيرة، وأن الباقي لها لن يكون أكثر مما مضى، فلا بد أن يُحسن إليها فيما تبقى حتى لا ترحل غاضبة عليه؛ الأمر الذي أحزنه بشدة، وأظهر ما في معدنه من طيب وأصل.

طلبت منه أن أعرف سبب مجيئه بأمه إلى الملجأ، إن لم يكن في ذلك حرج حتى نستطيع تذليل أي عقبة له قدر استطاعتنا، هذا ما قُوبل منه بصدر رحب، يوضح نيته في أن يجد أفضل الحلول لمعاناة أمه.



قص علينا سببه، والذي يتلخص في أن والدته أصبحت تحتاج إلى رعاية خاصة؛ حيث كبر سنها، وإصابتها ببعض الزهايمر.

ـ أكون في عملي وزوجتي لا تطيق أن ترعاها، وبالأخص أنها ـ أعزكم الله ـ تتأفف عندما تتغوط أو تتبول خارج حفاضتها، وحتى إن كان في الحفاضة، لا تغيرها لها، وتنتظرني عند مجيئي، حتى أقوم بذلك؛ الأمر الذي تسبب في كثير من المشكلات بيني وبين زوجتي والتي كادت أن تصل بنا إلى الطلاق، رأيت أن الحل الأمثل، أن آتي بها إلى الملجأ، أردت رعايتها لا تركها والبعد عنها، لا أقصر في أي مبالغ تطلبها مني الأم «مارية» ولن أبخل أبدًا على والدتي...

حديثه أوضح بعض الجوانب الخفية التي كنت لا أعلمها، والتي رفعت عنه جزءًا من مآخذي عليه، وكما يقال: «من يده في الماء ليس كمن يده في النار».

اقترحنا عليه أن يدفع ما يدفعه للملجأ بل أقل بكثيرٍ، لجليسة تكون مع أمه في منزله ترعاها، بذلك تكون أمه في بيته وأيضًا رفع عبء رعايتها عن زوجته.

رحب كثيرًا بذلك الحل الذي قدمناه، ووعدنا بأسبوع يجهز لأمه حجرة في منزله ويتوصل لجليسة لها.

في نهاية تلك المقابلة المثمرة، شددنا عليه أن يظل كل ذلك سريًّا، وأننا لم نبتغِ إلا راحة أمه وإسعادها؛ وهو ما أبدى تفهمه له، بل وسعادته بما قدمناه له من نصح وتوجيه.





(١٠)

«نشعر بهم وبفقدهم عند رحيلهم، وكأنهم لم يكونوا بيننا أيامًا وسنوات كنا وقتها نفضل أشياءًا أخرى عن الجلوس معهم»





يبدو أنها سترحل إلى مكان آخر ولن ترحل إلى بيت ابنها؛ لأنها ناقمة عليه، فلطالما نادته فلم يستجب، فسلمت نفسها للفراش، ورضخت لأمر المرض، لم تعد هي منذ ثلاثة أيام، فقد توقفت عن المحاولات اليومية والركض إلى البوابات، يئست من الخروج؛ فاستسلمت للخروج الأيسر وهو خروج الروح منها.

ذلك ما استنبطته لما آلت إليه حالتها الصحية التي بدأت في الانتكاسة منذ ثلاثة أيام، لكن هذا اليوم، اليوم الثالث، هو ما جعلني أستشعر ذلك؛ حيث أصبحت لا تحمل بداخلها سوى نبض ضعيف مستمر بتلك الأنفاس التي تُضخ لها عن طريق جهاز التنفس الصناعي الذي وضعه لها اليوم طبيب الملجأ، ولا حركة لجسدها ولو بسيطة، مقارنة باليوم الأول لمرضها من بداية تلك الوعكة وهو يوم مقابلتنا بابنها وقد ظننت في ذلك اليوم أنها وعكة عادية كالتي تنتابها بعد حالة صرعها، لكنها قد تكون اليوم أشد قليلاً وهذا ما أبلغناه لابنها «ربما المتبقى لأمك لن يكون كثيرا»، لكننا لم نظن أنه قليل بتلك الدرجة، ربما بدأت حالتها تتجه للأسوأ من اليوم الثاني لمرضها، ذلك اليوم الذي كنت غائبًا فيه يائساً من حديثي مع الأم «مارية» حتى عدت في يوم مرضها الثالث على هذا التطور في مشهدها، ذلك المشهد الذي أصبحت عليه جعلني



أعجل، بالاتصال بابنها للحضور، وهو ماكنت أود تأجيله، لا سيما أن ابنها سيأتي بعد أيام قليلة ليأخذها كما وعدنا، وقد تبقى في ذلك اليوم على وعده أربعة أيام فقط، لكن تطور حالها فى هذا اليوم جعلني أستنبط أنها ذهبت إلى نقطة اللا رجوع، وأنها في بداية النهاية؛ فكانت مهاتفتي لابنها أن يأتي في أسرع وقت، فلربما المتبقي من عمر والدته قليل جدًّا، والأمر جلل لا يحتمل التأخير.

أغلق معي بعدما أخبرني أنه في الطريق إلينا، لا يفصله عنا سوى مسافة الطريق والتي سيطويها طيًّا للحاق بأمه.

أتى في عجلة كما أخبرني، ذهبنا سويًّا إلى حجرة والدته، وفي الطريق إليها، دخلنا حجرة الطبيب المعالج حتى يسأله عن الحالة في عجالة وإن كانت له طلبات من أدوية أو غير ذلك يأتِ بها؛ فأخبره الطبيب بما توقعته من قبل، أن المشهد مشهد احتضار، ولا يفصل أمه عن الموت سوى بعض النبضات الضعيفة التي قد تنتهي ربما في السويعات أو حتى اللحظات القادمة.

فما كان منه بعد أن سمع ذلك من الطبيب، إلا أن انطلق نحو حجرة أمه في لهفة وعيناه تنهمل بالدموع، يريد أن يسبق الموت إليها؛ فتراه قبل أن ترحل إلى الله بشكوى لها منه، فتتنازل عن تلك الشكوى.

استدعت ذاكرتي تلقائيًّا عندما رأيت انطلاقته إلى أمه، ذلك المشهد عندما كان يتسلل للخروج من الملجأ بعدما مدد أمه على «الدكة» بعد نعاسها على كتفه مطمئنة أنه معها، قد أنهكها الركض وراءه عندما أراد الخروج في المرة الأولى، الآن يركض إليها في وقت ربما لن تسعد بذلك الركض ولن تشعر به.



«نشعر بهم وبفقدهم عند رحيلهم، وكأنهم لم يكونوا بيننا أيامًا وسنوات كنا وقتها نفضل أشياءًا أخرى عن الجلوس معهم»

أخذ يتمتم إلى أمه بصوت يختلط بالبكاء، متذكرًا كل وفائها ونكرانه، يجلد نفسه بحقيقتها على الملأ علَّ ضميره يستريح، ينادي على أمه كي تصحو من غفلتها، يخبرها بأنها ستذهب إلى ما كانت تتمنى، وأنه جهز لها غرفة في بيته، علَّ ذلك يوقظها، لكنها قد ذهبت، تلك النفس التي كانت تشتاق، وأتى الماء بعد بوار الزرع.

انتابته حالة هيسترية من ندم نفسه، ونحن نحاول تهدئته، يقول:

ـ كانت تصاب بالصرع من أجلي، كيف أكون هادئًا يوم رحيلها؟!

أمي لم تكن مريضة، بل أنا المريض، كيف تكون مريضة وكانت تنسى كل الدنيا وتتذكرني فقط؟ زهايمرها كان من أجلي، وعافيتى كانت عليها، إن كانت عافية، أي عافية هذه تذكرني بكل الناس وتنسيني أمي؟! لقد كنت في شدة مرض الجحود والنكران.

حاولنا أن نخرج به لما زادت حالته، لكنه أبى أن يخرج مرة أخرى دون أمه، وعزم ألا يبرح مكانه بجوارها.

كانت حالته قريبة جدًّا مما كان ينتاب والدته، وهي تخشى أن يتركها.

جلس على الأرض وأرسه على حافة سريرها، قد اجتمع عليه الحزن والإرهاق الشديدين، فقد جاء من عمله علينا، والساعة الآن تجاوزت الواحدة صباحًا وهو يأبى الذهاب، وأنا في حرج من أن أتركه على هذه الحال، جئت بطعام، فأبى أن يأكل معي وعمال الأمن.



وكأنه بوضعه هذا وجلسته هذه يتبادل مع والدته دورًا كانت تقوم به سلفًا، عله تذكر في هذا الوقت أمه عندما كانت تجلس بجواره وهو يذاكر في ليالي امتحانات الثانوية العامة يغلبها النعاس، لكنها تأبى أن تنام دون ولدها، وتأبى الطعام حتى يأكل هو، وهو الذي زهدت نفسه في الطعام خوفًا من اختباره بالغد.

أو لعله تذكر يومًا وُعِك فيه وكانت أمه على رأسه بكمادات الماء البارد، أنَّى يأتيها النوم وابنها مريض!

ظل على هذه الحال حتى رُفع أذان الفجر، قد اخترق جدران الملجأ حتى يأتي إلى أسماعنا بذلك الصوت الندي، أذانٌ أذِنَ الله به أن تُرفع هذه الروح إلى السماء حتى يطلع عليها نهار يوم جديد في مكان آخر، وكأنه قد انتهى ليلها المظلم.

صعدت روحها إلى بارئها في مشهد قد امتزجت فيه الأديان للإنسان في لوحة طبيعية غير مصطنعة، فهذا هو الابن ماسكًا لمصحفه يتلو على أمه آيات الله وعينه تفيض بالدمع في حجرة محاطة باللوحات والرسومات المسيحية الكاثوليكية، وهذا «ألفونس» يستيقظ من نومه على ذلك الخبر المفجع؛ فيقوم على سجيته يدعو الرب أن يحفظها، كالذي كان من النبي صلى الله عليه وسلم، عندما نهض من جلسته عند مرور جنازة يهودي أمامه، فقالوا له: يا رسول الله، إنه يهودي. فقال: أوليست نفسًا؟

الأديان لم تأتِ لتفرقة البشر بعضهم عن بعض، ولم تأمر معتنقيها بأن يكونوا منعزلين عن الآخر، كل ذلك من فعل المتسبين الذين بعدوا بتدينهم المغلوط عن الدين.



كان قد عزم ألا يخرج هذه المرة إلا بوالدته، صدّق القدر عزمه، لكنه لن يخرج بها إلى بيته، بل إلى بيتها الثاني، قبرها، وكأنها أيضًا عزمت على ألا تثقل على أحد حتى وإن كان ابنها.

انتهى ذلك اليوم الشاق على البدن، الكئيب على النفس.

انتهى، بعد أن وارينا جسد الحاجة «أمينة» التراب، بعدما صلينا عليها الظهر، خرجت من الملجأ مُحمولة على أعناق بِضْعَةِ شباب، من شباب التكليف العملي، الذين أتوا في الصباح لقضاء يوم جديد من أيام تكليفهم، فرأونا ونحن على هذه الحال مجتمعين حول جسد الحاجة «أمينة» فأبوا إلا أن يخرجوا معنا حاملين النعش بجوار ولدها، المثقل بالندم قبل جثمان والدته الذي يحمله.

انتهت الجنازة قليلة العدد، أتى المهندس «عمر» ليشكرني على تعبي ووقوفي معه في الليلة الماضية، قلت في نفسي إن كان هناك إرهاق بدني، فهو حتمًا سيزول بمجرد الراحة، أما ذلك الإحساس بالتقصير، فإننا لم نستطيع تلبية رغبة بسيطة للحاجة «أمينة» قبل رحيلها، سيظل يلازمني كلما تذكرتها، وجبر ذلك لن يكون إلا بالتفكير في الذين ما زالوا على قيد الحياة، قبل أن يرحلوا ونندم أيضًا على تأخرنا معهم.

عدت إلى المنزل، يشتاق هذا البدن المنهك إلى مضجعه كي يستلقي عليه بطمأنينة.

مددتُ جسدي على فراشي، في حوالي الساعة الثانية بعد الظهر، بعد أن تناولت بعض اللقيمات، لم أفق من نومتي هذه إلا الساعة الحادية عشرة مساءً.



اتصلت على «مارسيل» كي أخبرها بعدم ذهابي في الغد للملجأ، فليس هناك سبب ضروري للذهاب، ما دام الأمر سيظل على ما تريد تلك الراهبة المتسلطة، فلا أحب الوقوف عاجزًا عند أناس ينتظرون مني الكثير، لا أستطيع التأقلم مع عدم الفعل وما تريده الراهبة، ولا أستطيع الفعل.

وافقتني «مارسيل» على إجازتي، بل وشجعتني عليها، لراحتي على حد قولها؛ لما شعرت به من إحباطي ويأسي من نبرة صوتي أثناء مهاتفتي لها.

لكنها لم تنسَ في النهاية، أن تشدد «مداعبة» أنه يوم واحد، وغير ذلك ستدونني غيابًا بدون إذن، ثم أردفت:

ـ الملجأ ينتظر عودتك يا بطل بعد غد.

بطل! أي بطولة حققتها منذ مجيئي الملجأ؟! كان ذلك صوت نفسي المستنكر بنعتي بالبطل.



(١١)

«اللين ليس معناه التسيب، الابتسامة لا تقلل من درجة الاحترام، عبوس الوجه ليس حزمًا، إبداء الرأي والمشورة ليس كسرًا ولا تعديًا على قوانين الملجأ»





لم أذهب إلى الملجأ في ذلك اليوم، لكن الملجأ لم يذهب عني، ولم أسترح، على الأقل الراحة النفسية التي كنت أنشدها، بل زاد استيائي عندما فكرت في الأمر بتمعنٍ وهدوء، لماذا نرتضي الانصياع لديكتاتورية تلك الأم؟ هل ننتظر أن يحدث لباقي المسنين ما حدث للحاجة «أمينة»؟ ليس هناك متسع من الوقت لهؤلاء المسنين، فالباقي لهم أقل بكثير مما مضى، لا ينبغي أن يظل ما تبقى لهم من أيام رهن تلك الأم وهي التي حرمتهم حقوقهم فيما انقضى من عمرهم.

تحفزت وقررت وأنا على هذه الحال المضي قدمًا فيما قد اتفقت عليه مع «مارسيل» من قبل، ولكنني سأمضي فيه بمفردي، فليس لدي ما أخشاه، غير تلك الدرجات التي ما فكرت بها من الأساس في هذا التكليف، ولم تكن يومًا هدفًا لي عن التدريب الحقيقي العملي، وإن كان نجاحًا فقط فيه يرضيني، وذلك يضمنه لي مجرد حضوري، أما «مارسيل» فلديها ماتخشاه، وهو وظيفتها، وهي بالتأكيد في احتياج لها، في وقت عز فيه الحصول على وظيفة؛ لذلك لن أطلب منها معاونتي، بعد الرفض الصريح من الأم..

قررت أن أبدأ في ثاني بند كنا قد وضعناه للتحرك فيه بعد حالة الحاجة «أمينة» وهو التجمع بالمسنين ورفع شكواهم وملاحظاتهم عن الطعام؛ حيث إنه أقل القليل أن يؤخذ رأيهم فيما يأكلون، وفيما يشتهون تناوله



أيضًا، ووضعه في جدول، وتنفيذ ما تيسر منه على الأيام، خاصة وأنه كما علمت من «مارسيل» أن الظروف المالية وخزينة الملجأ لا تحول بين ذلك وما يشتهون على الإطلاق، لكنه التعنت المقصود؛ إمعانًا في التحكم والتسلط.

انطلقت إلى الملجأ في اليوم التالي ليوم إجازتي، ذاهبًا بإصراري وعزمي أن أفعل فيه شيئًا، أو ألقي حجرًا في المياه الراكدة.

دخلت إلى «مارسيل» ألقيت عليها السلام، وكانت تغلق حجرتها كي تخرج، ربما لقضاء شيء إداري للملجأ بالخارج، فكانت تحمل حقيبة محملة بالأوراق، وكأن القدر يرتب لي المشهد، فكنت أرغب أيضًا بعدم تواجدها في ذلك الوقت حتى لا تؤخذ بما سنفعل لو أغضب ذلك الأم «مارية» رغم اقتناعي التام بأنني لن أفعل خطأ.

مررت على أصدقائي من المعهد الذين يقضون معي فترة التكليف، أتوقع أن يكون لهم دور، لا سيما وأنهم ما زالوا متأثرين بموت الحاجة «أمينة» واشتياقها كي تعود لبيت ابنها، فهذا هو الوقت المناسب لاستثمار ذلك التأثر منهم في عمل شيء إيجابي للذين مازالوا على قيد الحياة.

وبالفعل، وكما توقعت، استجاب جلهم إن لم يكن كلهم لمساعدتي، فجمع كل منهم من سيستوعب من حالاته ما سنقول، ومن عنده الرغبة في التحدث وإبداء الرأي، فكانت المفاجأة هي استجابة أكثر من في الملجأ، حتى بعض أصحاب المرض العقلي والنفسي أتوا وإن كانوا ليتواجدوا مع الجمع فحسب، وهم ربما لا يعلمون عن أي شيء يتحدثون.

تحلقنا في حلقة كبيرة على أرض صالة الملجأ، بدأ نقاشنا، وكأن براكين



قد فتحت لها فواهات كي تتحدث، فانهالت علينا الشكاوى، من سوء الطعام وسوء تحضيره، وطريقة تقديمه، والتي قال عنها أحدهم وكأنه طعام يقدم إلى دجاج، فيوضع «الطبيخ» على الأرز على أي شيء ثالث في طبق واحد، ومنهم من اشتكى من المواعيد، فكانت وجبة العشاء تُقدم لهم الساعة الثالثة عصرًا؛ لأن الطهاة ينصرفون عن الملجأ في ذلك الوقت، وهو نفسه ما تناولوه في الغداء الساعة الثانية عشرة، والفطور فقط الذي يكون في الصباح هو المختلف، وهو في الساعة التاسعة صباحًا.

يأتيهم العشاء في هذا الوقت، الثالثة عصرًا، فمنهم من يتركه إلى الليل كي يتعشى به فيأكله باردًا قد تعجن؛ لأنه غالبًا ما يكون أصنافًا فوق بعضها لا تعرف ما هي، أو من الممكن أن يصيبه التلف؛ فيحمض خاصة إن كان في الصيف.

ومنهم من يأكله وهو ساخن حتى وإن لم يكن جائعًا حتى لا يتلف إذا تركه إلى الليل؛ فيكون قد خسره، فيفضل أن يأكله وإن كان شبعان تحسبًا لجوعه بالليل.

كان هناك الكثير من المآخذ والشكاوى التي هي في طبيعة الحال بعيدة كل البعد عن الرفاهية، بل هي الفرق بين الآدمية واللا آدمية، أشياء لا تحتاج إلى كثير من المال، فقط تحتاج إلى إنسانية في معاملة إنسان.

بينما نحن كذلك على اجتماعنا، جالسون على الأرض، فإذا بها فوق رؤوسنا بوجه متجهم يبدو عليه الغضب الشديد، قد انتفضت كل عروق وقسمات وجهها من الغيظ، فصاحت فينا بصوت حاد متناسق مع ما ظهر على وجهها:



ـ «ما هذه الفوضى؟ كل نزيل إلى سريره، لن يكون لكم اليوم خروج للتريض، موعد النوم بدأ من الآن، من سأجده منكم بعد الآن في هذه الصالة أو خارج عنبره سيعاقب بغسل كل أطباق وأواني الملجأ، الكل على سريره، الكل على سريره.

لن يكسر أحد قوانين الملجأ، ولن أسمح أبدًا بالفوضى هنا».

فإذا بالكل ينفض من حولي أنا وزملائي، منكسين رؤوسهم إلى الأرض لا حيلة لهم، فهم أعلم بمدى قدرتها على تنفيذ ما هددت به؛ من تجاربهم السابقة معها؛ لذا فلا لوم عليهم.

لم أستطع أن أتحمل أكثر من ذلك، وإن كان زملائي من حولي يحاولون إبعادي، ومنعي من أي حديث معها وأنا على هذه الحال لعلمهم بما سيكون، ولكن الأمر كان فوق الاحتمال، خاصة وهي تهددهم كتلاميذ في مدرسة ابتدائية، تأمرهم أن يذهبوا إلى فصولهم وتمنعهم من «الفسحة» دون أدنى مراعاة لسنهم ولا نفوسهم، حتى وإن كانوا اطفالًا صغارًا، فلا يليق هذا الأسلوب معهم، فضلًا عن أنهم مسنين في أرذل العمر..

حاولت امتصاص غضبي، وضبط نفسي؛ فتحدثت إليها بهدوء أتكلفه؛ حرصًا لآخر الوقت على ذلك الخيط الرفيع بيني وبينها، وتأخيرًا لصدام قد يعيق كل ما أرنو إليه، فقلت لها:

ـ يا سيدتي، اللين ليس معناه التسيب، الابتسامة لا تقلل من درجة الاحترام، عبوس الوجه ليس حزمًا، إبداء الرأي والمشورة ليس كسرًا ولا تعديًا على قوانين الملجأ، ليس تعارضًا بين أن يحبوكِ وأن ينفذوا تعليماتك، بل المحب لمن يحب مطيع.



لم تعقب وتعمدت تجاهلى كأنها لم تسمع، فأردفت لها بنبرة رجاء أن تسمع:

ـ سيدتي، فارق كبير أن تكوني القائدة لهم عن تزكية منهم وحب ورضا، وأن تكوني القائدة عن خوف منهم وتسلط منك، ففي الأخير إن وجدوا الفرصة فستكونين أول من يقتصون منها، أما الأولى إن مسك مكروه، فهم أول المضحين والمدافعين عنك.

ـ إذن أنت زعيم تلك الفوضى

من أنت حتى تعدل علينا عملنا وتُنظّر لي؟ من أنت؟ لن أسمح لطيش شبابك وعدم فهمك أن يقضي على نظام وقوانين الملجأ، سأنهي لك تكليفك، ومن سيكون على شاكلتك من باقي المُكلفين.

في هذه اللحظات، قد وصل الغضب بداخلي إلى أعلى درجاته، فكنت أدفع هؤلاء الزملاء الذين يحاولون إيقافي عن الرد عليها، وأنا أتقدم نحوها غاضبًا قد تفلتت مني الأعصاب:

ـ من أنا؟ أنا إنسان فقط، تلك الإنسانية التي لا تعرفين عنها شيئًا، أو ربما غادرت قلبك لما فارقته الحياة، السؤال الأصح: من أنتِ لتعطي لنفسكِ حق التسلط عليهم وإذلالهم؟ من سمح لكِ أن تتعاملي هكذا معهم؟ هم ليسوا إرثًا لكِ تتحكمين فيه، أو أنعامًا تسوقينها كيف شئتِ، هم أناس مثلك، هم أرواح كرمها الله.

ـ أنا رئيسة ذلك الملجأ، وأنا الراهبة الأم، أيها الجاهل.

راهبة، أي رهبانية هذه؟ هم أكثر رهبانية منك، فقد جُردوا هنا من ترفهم، فضلًا عن أدنى احتياجاتهم كبشر، أما أنتِ فما زال بداخلكِ حب



السيادة والقيادة التي لا تحبين أن ينازعك فيها أحد، لم تتجردي من لذة السلطة والتحكم، تأكلين ما تريدين وتخرجين وقتما تشاءين، تحت حجة توفير ما يتطلبه الملجأ.

فى هذا الوقت استشاطت غضبًا من ردودي التي لم تكن تتوقعها، فالكثير كان يتحاشى مواجهتها، فلم تتعرض لذلك من قبل.

فأخذت تصرخ بصوت عالٍ على الأمن، وعلى «مارسيل» والتي كانت خارج الملجأ، نادت عليها حتى تأتي وتنهي تكليفي، وأيضًا تصيح فيَّ أن اخرج خارج الملجأ، وأنها سترسل خطاب إنهاء تكليفى إلى كليتي في الغد لسوء أدبي وسلوكي.

اجتمع الأمن وبعض العاملين على وقع صياحها، فوجدتني بين جمع كبير من زملائي والعاملين هناك، والكل يطالبني بالخروج إخمادًا لهذا الموقف، وحتى يتوقف صراخها الذي أصبح بشكل هيستيري.

لم أجد سبيلًا بعد كل هذا إلا الخروج، احترامًا لطلب من هو أكبر مني من العاملين وأفراد الأمن بالملجأ، والذين كانوا في حرج شديد بين تنفيذ ما تأمرهم به من إلقائي بالخارج، وبين معرفتي بهم والتي اشتدت وثوقًا في الأيام الأخيرة، فما كان مني إلا الخروج؛ رفعًا لذلك الحرج عنهم.

عـدت إلى البيـت، وما زالت تناتبنـي تلك الحالة مـن التوتر وفقدان الأعصاب، مع انخفاض درجة حرارة أطراف يدي؛ من شدة انفعالي.

نمت حتى الليل، استيقظت في الساعة الحادية عشرة مساءً، فتحت هاتفي، فإذا بمحاولات اتصال كثيرة من «مارسيل» كنت قد أغلقت الهاتف مما اعتراني من ضيق، فكنت في حالة لا تسمح لي بالتحدث، حتى



في منزلي، كان ذلك ملحوظًا من أسرتي، وقد كثرت أسئلتهم لي في هذا الصدد، ماذا بي وما سبب ضيقي؛ الأمر الذي تهربت منه بالنوم؛ معللًا ذلك بالإرهاق.

اتصلت على «مارسيل» فور تنشيطى لهاتفي، فلا بد أنه أمر متعلق بما حدث وإن كانت هي لم تحضر، لكن بالتأكيد علمت بعد عودتها إلى الملجأ، فالأمر جلل.

أعربت لي في بداية حديثها عن استغرابها الشديد لما حدث، وأنها كانت تثق بأنني سأكون أكثر من ذلك تحملًا، وسأفوِّت تلك الفرصة على الأم «مارية» فكان ردي عليها، الأمر كان أكبر من أن يُحتمل، ولست نادمًا على ردي عليها، كل حزني أنني من المؤكد لن أستطيع العودة إلى الملجأ مرة أخرى، ولن أستطيع فعل شيء مما كنت أتمناه تجاه المسنين.

ثم ذكرتني بشيء آخر لم أكن أعمل له أي حساب من قبل، وإن كنت أعلمه، وهو أن الأم «مارية» ستنهي تكليفي تحت سبب سوء أدبي والتعدي على إدارة الملجأ؛ وهو ما سيتسبب لي في مشكلة أيضًا في دراستي؛ حيث إن نتيجة التكليف تعتبر هي نتيجة الاختبار العملي، وعليه درجات، وسبب مثل ذلك سيؤدي إلى رسوبي.

ذكرتني بشيء كنت أتناساه عمدًا وأتهرب منه؛ فازداد حزني أن الخسارة من كل اتجاه، كان سيخفف من وطأة ذلك، لو كنت قد فعلت شيئًا يذكر في حال الملجأ وحال المسنين هناك، على الأقل سيكون هناك شيء مقابل شيء، لكن يبدو أنني خسرت كل شيء، سوى ضميري وما أراه حقًّا، رغم كل ما بي من سوء، لكن هذا الموقف ما أحمد نفسي عليه.



لم تنسَ في النهاية أن تأخذ عليّ العهد بعدم العودة إلى الملجأ لا لشيء سوى لخوفها عليّ فقالت:

ـ قد استعانت الأم «مارية» بشركة أمن بدلًا من الأمن القديم، والذين حولتهم للتحقيق لرعونتهم معك على حد اتهامها لهم، وقد أخبرت أفراد الأمن الجديد باسمك، وأطلقت أيديهم لأي تعامل معك بحجة أنك تتعدى على الملجأ إن أتيت مرة أخرى، وذلك سبب قانوني يتيح للأمن أي تعامل يرونه مناسبًا لحماية المنشأة التي هم مسئولون عن حراستها.

كان لذلك العهد الأثر الطيب على نفسي من «مارسيل» فكان واضحًا جدًّا من صوتها وتأكيدها أن الدافع هو خوفها عليّ فقط وليس تنفيذًا لأمر من الأم «مارية».

ذلك ما دفعني في نهاية الحديث، وبجرأة غير معهودة عليّ في مثل هذه المواقف، أن أقول لها: وأنا أيضًا لي عندك عهد حتى أحفظ عهدك لدي،

قالت:

ـ وما هو؟

قلت:

ـ أن يستمر تواصلنا، وإن كنت لن أراكِ في الملجأ مرة أخرى، أحب أن أراكِ دائمًا، فعاهديني على ذلك، حتى لا أكون خاسرًا لكل شيء.

قالت:

ـ بل أنا من أتشرف بذلك، أعاهدك.

ليس أجمل من ذلك ختامًا يجعلني أتصبر على ما أصابني في دراستي، وفيما كنت أطمح في تحقيقه.



بعد تفكير، قررت عدم الاستسلام لما يحدث، على الأقل في الأمر المتعلق بدراستي، لا بد أن أذهب إلى أستاذي بالمعهد الدكتور «مراد» وأقص عليه ما حدث، وأستبق وصول ما سترسله له الأم «مارية» في إنهاء تكليفي، لا بد أن أذهب إليه كي تكون الصورة واضحة أمامه، فهو الدكتور المسئول عن التكاليف، وهو من وزعنا، وهو أيضًا يعرفني جيدًا، ويعرف مدى حبي لدراستي.

ذهبت إليه في اليوم التالي مباشرة لإنهاء تكليفي، قصصت عليه ما حدث، لام عليّ أنني لم أعلمه من قبل بكل هذه الظروف، حتى يتدخل هو وتوسط عند إدارة الملجأ لإتمام ما كنت أود إنجازه، لكنه في النهاية طمأنني، ورفع كثيرًا من روحي المعنوية بإبداء سعادته بما فعلت، وإن كان يود أن لو تريثت قليلًا وأبلغته.

ذلك الاطمئنان كان له بالغ الأثر على نفسي، فهو أستاذي الذي أعتز به، وكنت في حاجة ماسة إلى أن أسمع ذلك من أحد في مكانته، ففي بعض الوقت، ورغم قناعتي ورضائي عما فعلت، إلا أنه قد تسلل إليَّ بعض الاهتزاز في موقفي، فكنت أحتاج لذلك التثبيت، لا سيما وأنه طمأنني أيضًا على درجات تكليفي.





(١٢)

«كل مسلم دائمًا مدان إلى أن يظهر العكس، والآخر بريء وإن ظهر العكس، ثم يتساءلون بعد ذلك عن سبب الكراهية!»





مرت أيام، كنا بين يوم وآخر نتحدث، تخبرني بحال أهل الملجأ، وفي كل اتصال بيني وبينها، تنقل لي أشواق «ألفونس» في أن يراني، ويدعوني حتى لو لمجرد زيارة لدقائق معدودة، فقد أتعبني جدًّا قوله الذي عاهد «مارسيل» على أن ترسله لي.

ـ أنت الوحيد من كنت تأتيني كل صباح وتسأل عني وتطئمن على حالي، في هذا الوقت فقط شعرت بمعنى الأهل، أرجوك لا تزهد في زيارتي.

ثم أردفت:

ـ وما حدث بالأمس لـ«كرستين» جعله يدخل في حالة من الحزن الشديد والاكتئاب.

قلت لها:

ـ طمئنينى عليها، ما الذي حدث؟

قالت:

ـ انزلقت وهي خارجة من المرحاض على ظهرها، ولكبر سنها؛ حدثت كسور في أكثر عظام جسدها النحيف، وهي الآن طريحة الفراش،



تحتاج لعمليات، لا تصلح مع كبر سنها، هي الآن تحت الملاحظة، ومعها طبيب الملجأ.

حز في نفسي جدًّا ما حدث لـ«كرستين» وأيضًا لمعرفتي بمدى علاقة «ألفونس» بها توقعت مقدار ألمه وحزنه، وددت جدًّا زيارتها وتحقيق هذا الطلب اليسير أيضًا لـ«ألفونس» لكنه ما أصعبه في تلك الأيام بعد الذى حدث بيني وبين الراهبة!

دائمًا كعـادتي، ليس لي ثوابـت، غير المتاح بالأمس ربـما بعد تفكيري فيه طويلًا يكون متاحًا بعدما أسـوق لنفسي التبريرات التي تحتاجها، بعد أستنتاجها من تفكيري الطويل.

كان من ذلك أن قررت فجأة أن تكون لي زيارة للملجأ! لِمَ لا؟ كزائر عادي، له مسن يزوره، وأنا لي أكثر من مسن أود الاطمئنان عليه، لا سيما «كرستين» وما أصابها، وهذه المرة ستكون غير رسمية، فقد انتهى تكليفي، مجرد زائر لمسنين فحسب، أو حتى مثلما تفعل الجمعيات الخيرية في زيارتها للملاجئ، فهم يذهبون ليس لأن لهم أحدًا، لكن لأن ذلك خير، ولإدخال السرور على المسنين، هكذا كانت مبرراتي التي أوجدتها لنفسي حتى أقوم بشيء أرغب فعله.

لكنني لم أحدد ذلك اليوم، لكنه سيكون قريبًا، قررت أيضًا ألا أخبر «مارسيل» لسببين، الأول: سأجعله مفاجأة لها ولكل أهل الملجأ، الثاني: هو أنها دائمًا بعدما تبلغني طلب «ألفونس» لرؤيتي، تقول لي: أبلغتك لأنها أمانة، لكن أرجوك لا تأتِ، ودائمًا ما كانت تحذرني من ذلك، وأن هناك أوامر لأفراد الأمن الجدد بعدم دخولي، والتعامل معي.



رغـم صدقها الـذي أثق فيه، وأنها فعلًا تخاف عـليّ، إلا أنني وجدت الأمـر أيسر مـن ذلك، فأنـا لن أذهـب معتديًا عـلى أحد، لمـاذا أُمنع أو يتعاملون معي، ثم إن الملجأ مفتوح لكل الزائرين، وأنا سـأذهب كزائر، وحتـى وإن لم يسـمحوا لي بالدخـول، سـيكون ذلك بكل احـترام مثلما سأكون محترمًا معهم، ولن يكون هناك أي مشكلة.

كان ذلك القرار يوم الإثنين، وجاءني العزم على تنفيذه في ليلة يوم الخميس، في ذلك اليوم أيضًا كان هناك اتصال بيني وبين»مارسيل« لكنني لم أخبرها، وأردت أن تظل مفاجأة.

في صبـاح يـوم الخميس، توجهـت إلى الملجأ، وعند أبوابـه إذا بورقة عليها اسمي وأنني ممنوع من الدخول، توجهت صوب الأمن، أخرجت لهم بطاقتي بدعابة لأنهم سـيرون الاسـم، أنا هذا المكتـوب على الباب، لكننـي أتيت في زيـارة قصيرة لـ«ألفونـس» فإذا بأحدهـم يدفعني دفعة شـديدة على صدري لم أكن أتوقعها، كدت أن أقع على الأرض، أسندت نفـسي، أحـاول أن أتفهم منه سـبب ذلـك، فإذا بـه يكررها بسـبي، إن لم أذهـب من هنا سـيفعل ويفعل، هنـا مددت يدي فقط، محـاولًا إبعاده وصد دفعاته، فأمسـك بعصا كانت بجاوره، فضربني بها أتت على بطني وخصري، هنا لم أجد بُدًّا إلا الدفاع عن نفسي؛ فاشتبكت معه، وأمسكت العصا بيدي وهو يركل بقدمه، حتى أتى باقي أصحابه الذين كنت أظنهم سيفضون هذا الاشتباك بيني وبينه، ما إن قال لهم إنني من يريدون، حتى تكالبوا عليّ بالركلات وباللكمات القوية، حتى تهاويت تحتهم، لم أستطع التماسك من ضرباتهم التي كانوا يوجهونها إليَّ بكل قوة، غير مكترثين إن حتى مِتُّ، توقفوا عـن الضرب، ليس رأفة بتوجعي، ولكن لما أوجعتهم



أيديهم من كثرة ضربي، كنت غائبًا عن الوعي، وإن كان ليس بشكل كلي، وكأنني في كابوس مرعب، لم أتخيل نفسي يومًا أن أكون تحت الأقدام أُركل، فاضت عيني بالدموع، ليس من ضعف، ولكن حزنًا على نفسي أن أكون في هذا الموقف، وزاد ذلك الجرح النفسي، عندما قيدوني في حجرة الأمن في انتظار أن تأتي الشرطة كي تأخذني، وبالطبع لا تأخذهم، كان هذا أمر تلك المجرمة «مارية» عندما صعد إليها أحد أفراد الأمن يستوضح منها عما سيفعلونه بي، لم يشعر أحد ممن بالملجأ بما حدث إلا «غالية» هي فقط من رأتني في لقطة وأنا أخرج من حجرة الأمن إلى سيارة الشرطة، لعل ذلك من حسن القدر، ما كنت أحب أبدًا أن يراني أحد ممن أحبهم وأنا على هذه الحال وذلك الانكسار، ذلك الموقف، لم ولن تمحوه الأيام، بمجرد تذكري له ينقبض قلبي ويضيق صدري، وتُكتم بداخلي أنفاسي، وعيني لا أستطيع إيقافها من أن تبكي.

وصلت إلى قسم الشرطة القريب من الملجأ، وكان معي في سيارة الشرطة أحد أفراد الأمن الذين اعتدوا عليَّ كشاهد ضدي، وهو من سيقوم بعمل المحضر.

دونما أي فرصية للدفاع، كُتب المحضر، بما يمليه على الضابط، ذلك المجرم من أفراد الأمن، إذا تحدثت كي أنفي عني تهمة من هذه التهم الكثيرة، وجدت المنع والتكذيب من قبل الضابط، ذلك الضابط الذي من المفترض أن يكون على الحياد، فضلًا عن أن يكون مدافعًا عن الحق.

لا عجب من ذلك، فكيف لي أن أتحدث وأنا الموصوف على ورقة بالإرهابي الذي تعدى على الملجأ؛ لأنه قد طُرد منه من قبل؛ لتعامله بطائفية، مع تقديم الخطاب المرسل إلى المعهد بإنهاء تكليفي دونما دليل على ما يقولون!



لم يكن الضابط في هذا الوقت على استعداد أن يقتنع بأي من دفوعي، بل لم يسمح لي بها من الأساس؛ ذلك أنه لا يوجد في قاموسهم متطرف سوى المسلم، حتى وإن كانت الدولة تزعم أنها مسلمة، نعم هذه هي الحقيقة التي كنت أسمع عنها وأحاول نفيها، أقولها وأنا أعيشها واقعًا، لا بدافع من الطائفية ولا كراهية الآخر، فما وصلت ها هنا إلا لحبي للآخر، لن يستمع إليّ أحد وأنا أقول إن الإرهابية هذه المرة، راهبة مسيحية، وليس رجلًا ملتحيًا أو امرأة منتقبة، رغم أن القاعدة تقول: «إن في كل جماعة من الناس هناك الصالح والطالح، ويعبر الإنسان عن نفسه لا عن دين؛ لأنه ليس ثمة تنزيه عن الخطأ لأي إنسان» لكن قاعدتهم تقول إن هناك فئة منزهة عن الخطأ لا تكون أبداً موضع شبهة أو اتهام..

«كل مسلم دائمًا مدان إلى أن يظهر العكس، والآخر بريء وإن ظهر العكس، ثم يتساءلون بعد ذلك عن سبب الكراهية»!

ما تحدثت يومًا بذلك الخطاب، بل كنت أرفضه ممن يقوله، كما كنت أكرهه من بعض المسيحيين الذين لا يظهرون إلا بالمظلومية، وأنهم معتدى عليهم، لكن ما عشته واقعًا، جعلني لا أستحيي أن أصدح به وإن نُعت بالطائفية، الطائفيون هم أولئك الضباط ومن على شاكلتهم، الذين يؤمنون بأن هناك بعض التهم لا تكون إلا لبعض الناس، بناءً على دينهم، وأحيانًا شكلهم.

بت ليلة في القسم وأنا مثخن من ضرباتهم، مظلوم باتهامهم، عُرضت في اليوم التالي على النيابة، في مشهد أشد قساوة من ذلك الذي خرجت به من الملجأ إلى القسم، حيث أبي وأمي بالخارج، بجوارهما «مارسيل» وأنا «مكلبش» اليدين أصعد عربة الترحيلات بجوار المسجلين والمجرمين، وربما المظلومين من الشباب أمثالي.



عُرضت على النيابة، قرأ عليّ وكيل النيابة التهم المنسوبة إليّ، ثم طالبني بالتعليق عليها والدفاع عن نفسي، ترك لي كل الوقت كي أتحدث بما أحب، لكنه قال لي في النهاية هم أتوا بالأدلة على كلامهم، ورقة إنهاء تكليفك وأنت مقبوض عليك عندهم وأنت تتعدى عليهم، ما الذي يجعلني أصدق ما تقول؟ أين أدلتك؟

_ أين أدلتى؟! أنا شاب مسالم، لم أحتط بأدلة، وكيف أحتاط وأنا ذاهب إلى زيارة مسنين؟!

رد عليّ قائلًا:

ـ صعوبة موقفك أن الخصم مؤسسة تابعة للغرب في أصلها، وأيضًا مسيحية، وأنت مسلم، كل ذلك يجعلنا في حرج، مثل هذه القضايا تكون شائكة لأنها طائفية.

قلت له:

ـ هل مصريتي التي أنا تابع لها أقل من مؤسسة تابعة للغرب؟! عذرًا سيدي الوكيل، كنت أتمنى أن يكون العدل فقط هو العنوان دون النظر إلى التبعية.

رد قائلًا:

ـ وأنا ليس لي عنوان سوى العدل، والعدل يحتاج إلى أدلة، إذا أتيت بها لن أتوانى لحظة من تبرئتك، حتى وإن كان خصمك فرنسا ذاتها وليست مؤسسة تابعة لها.

رد دبلوماسي منه، أصلح به بعض ما فهمت من قوله الأول، وإن



كان لم ينفه بداخلي، لكن محاولة التصليح هذه أفضل من ثباته على ما قال.

كانت الصدمة بعد هذا السجال، أنه أصدر قرارًا بحبسي أربعة أيام على ذمة التحقيق.

بعد خروجي من حجرة التحقيق، سمح لي الضابط المرافق بالتحدث مع والدي، والذي علم بكل ما حدث من «مارسيل» والتي أكدت لي أنها ستكون دليلًا معي في الجلسة القادمة، وطالبتني أن أطلب من وكيل النيابة في المرة القادمة أن يسمع أقوالها.

مرت هذه الأيام الأربعة عليَّ كسنوات، لا أصدق ما حدث لي، أصبحت في ظرف أيام إرهابيًّا ومعتديًا، بل وسجينًا، صورة أبي وهو أمام القسم وهو يشاهدني بـ«كلبشات» اليدين وحسرته عليّ لا تفارقني، حالي وأنا بين أقدامهم متهاويًا من لكماتهم يؤلمني أكثر من آلام لكماتهم نفسها.

انقضت الأربعة أيام، ركبت تلك السيارة المهينة للمرة الثانية بنفس القيد على يدي، أحضر أبي معه المحامي، دخلت للعرض على وكيل النيابة، وأول ما بدأنا التحقيق، طلب المحامي المرافق لي سماع أقوال المرشدة النفسية للملجأ الأستاذة «مارسيل» أمر وكيل النيابة استدعاءها من الخارج، دخلت وحكت عني أكثر مما كنت أحكيه عن نفسي، وضحت كل الحقائق للنيابة، وقالت لو أرادت النيابة زيارة الملجأ وسؤال المسنين سيكون ذلك أوقع، تعجب وكيل النيابة من أنها مسيحية وتدافع عن شاب مسلم ضد مسيحية وليست أي مسيحية، بل راهبة.

كان ردها عليه:

ـ ما العجيب فى ذلك، وقوفي مع الحق لا يخرجني من دينى، ودفاعى عن مسلم مظلوم، لا يتعارض مع مسيحيتي.



بعد سماعه لشهادة «مارسيل»، والتي اهتمت فيها بالدفاع عني أكثر من اتهام «مارية» وكنت أتفهم ذلك، وكفاني منها أنها بادرت بذلك ولم تخشَ على وظيفتها.

بعد سماع وكيل النيابة لتلك الشهادة؛ أمر بإطلاق سراحي من سراي النيابة، لتمر أشد المحن عليّ في حياتي، والتي لا أظن أن يمر عليّ أصعب منها.

عدت إلى منزلي بعد تلك المعاناة الشديدة وقد تغيرت مفاهيم كثيرة لدي، ظللت أيامًا لا أستطيع التفكير إلا في هذه المحنة، لا أستطيع تجاوزها، توقفت حياتي كثيرًا عندها، في هذه الأيام، لم تتركني «مارسيل» وحدي، فقد زارتني بعد خروجي بيوم في بيتي زيارة لم أكن أتوقعها مطلقًا، وتعاهدتني كل يوم باتصال في المساء، تطمئن به على حالي، كنت لا أسألها عن الملجأ، وكانت هي لا تتحدث عنه أبدًا مساعدة منها لي في طي هذه الصفحة الكئيبة من يوم الاعتداء عليَّ حتى حبسي وخروجي.

مرت عشرة أيام، بدأت العودة لنفسي تدريجيًّا، وشعرت فجأة وكأنني تذكرت نزلاء الملجأ، وأنني لا أعرف شيئًا عنهم من وقت ما حدث؛ فاتصلت على الفور على «مارسيل» أسألها عن حالة «ألفونس» وباقي المسنين هناك، فأخبرتني أنها كانت تنتظر مني هذا السؤال.

- فـ«ألفونس» أصبح طريح الفراش، تزداد حالته كل يوم سوءًا حزنًا على ما حدث لـ«كرستين» والتي أصبحت شبه ميتة سريريًّا، وزاد من حدة ذلك أيضًا عندما علم بما حدث لك، شعر بأنه السبب؛ لأنه السبب الرئيسي لمجيئك في هذا اليوم، فدائمًا يلازمه شعور بالذنب، مع حزنه على «كرستين».



في كل يوم ينادينى ليسألني عنك، ويقول لي: هل حادثتيه اليوم؟ وأقول له نعمٍ، ويسألني دائمًا عنك، كان كل يوم يرسل لك سلامًا معي، ويقول لي أتمنى أن أراه قبل أن أموت، لكني كنت أستحيي أن أبلغك هذا وأنت على حالك هذه، كنت أتعمد ألا أذكر شيئًا عن الملجأ في هذه الأوقات.

حزنت جدًّا لما وصلت إليه حالة «كرستين» و«ألفونس» حزنت لتلك الرغبة التي لم أستطع تلبيتها، وربما لن أستطيع في المستقبل.

في نهاية حديثي، طالبتها بنقل سلامي إليهم جميعًا، خاصة «ألفونس» وأن تخبرني بحالهم كل يوم إن استطاعت ذلك، قبل أن أغلق معها، تذكرت أن أسألها عن حالها هي في الملجأ، وهل علمت «مارية» بشهادتها معي في النيابة؟

ضحكت وقالت: نعم علمت، وأصبحت تراقبني كما كانت تراقبك من قبل، أصبحت تراني خطرًا على رئاستها للملجأ، رغم أنني قلت لها إنني لم أشهد ضدها في شيء، شهدت فقط بما رأيته عندما سألني وكيل النيابة عن معاملتك للمسنين، قلت كانت على أفضل حال، والكل هنا يحبه، وهذا أمر لا يمكن نكرانه أبدًا.

تأسفت لها إن تسببت لها في كل هذا، فقالت:

ـ أردت أن أقوم ببعض التضحية البسيطة التي تعلمتها منك، أما عن وظيفتي، فمسألة تركي لها أصبحت وشيكة جدًّا وقد نمى إلى علمي أنها تبحث عن أخرى تحل مكاني وأنا غير نادمة أبدًا على ذلك القليل الذي فعلت، ولو عاد بي الزمن لفعلت ذلك وأكثر، أنا سعيدة جدًّا أني استطعت أن أتخذ موقفًا، أكون فيه واقفة في صف الحق.



توالت الاتصالات بيننا على مدار الأيام، في كل يوم تبلغني سلام «ألفونس» وتأخر صحته عن اليوم الذي مر، حتى قالت لي آخر مرة إن ما بقي له أصبح معدودًا جدًّا..

ـ «مازن» أتمنى أن تزوره، أعلم أن ذلك من أشد الصعاب، لكنه يتمنى أن يراك بشدة، أشعر وكأنه يدفع المرض بتلك الأمنية إن حدثت فسيستسلم له، وأود حقيقة أن تتجاوز هذه الأزمة بشكل عملي، أن تأتي مرة أخرى إلى هذا المكان.

ـ ماذا تقولين يا مارسيل؟! بعد كل ماحدث؟! كيف سأدخل الملجأ مرة أخرى، وحتى إن وجدت الطريقة، أشعر بانكسار النفس من مجرد تذكره، كيف بي إذ دخلته؟! كيف أمرُّ على تلك البوابة التي ضُربت عليها وأُدميت؟ كيف؟!

ـ لذلك قلت لك هذا، فأنا أود أن يزول ذلك الانكسار، أنت أقوى من ذلك، هذا ليس بملك «مارية» أو حراسها، أما عن الطريقة، فلديَّ طريقة سأقولها لك وأتركك للتفكير فيها، المهم أن تقتنع بالمبدأ.

ـ لا أدري ماذا أقول لكِ، على أية حال، أحب أن أسمع منك هذه الطريقة، فأنا أرى أنه من المستحيل دخولي الملجأ مرة أخرى بعد ما حدث، والاستحالة هنا من نفسي التي تأبى، وأيضًا لأنني ممنوع من ذلك، ولا أحب أن يحدث ما حدث لي مرة أخرى، في هذه المرة ستثبت عليَّ ادعاءتهم، وأنني ذاهب لأعتدي عليهم.

ـ اسمع مني، ولك بعد ذلك مطلق الحرية، طريقتي هي، أن تذهب لمقابلة أو مخاطبة بابا بطريرك الأقباط الكاثوليك، وتطلب منه زيارة



الملجأ في عيد الميلاد، لكن من الأفضل ألَّا تحكي له ما حدث، قل له فقط أنك ممنوع لاختلافك مع الأم «مارية» حتى لا يتحول الموضوع لمنحى التحقيق فيطول، وعيد الميلاد باقٍ عليه ثلاثة أيام، وهذه فرصة ستكون سعيدة على «ألفونس» وأيضًا نكون قد حققنا شيئًا من اتفاقنا السابق وهو حفل عيد الميلاد، مع العلم بأن البابا لو تدخل في ذلك حتى ولو مخاطبة، فلن تستطيع الأم «مارية» إلا التنفيذ؛ لما له من قداسة، كبابا الأقباط الأرثوذكس عندنا، هذه طريقتي والتي أراها مضمونة بشكل كبير؛ حيث إنه لا يرد أي فاعل للخير،..

انتهت بيننا المكالمة على وعد مني في التفكير بالأمر ثم الرد عليها.

فكرت فيما اقترحت عليّ «مارسيل» في مخاطبة أو مقابلة بطريرك الأقباط الكاثوليك؛ الذي بدوره له قيادة دينية معتبرة عند «مارية» باعتبارها أيضًا كاثوليكية، وإن كان ليس له دور إداري، حيث إن الإشراف الأكبر لتلك المؤسسات الإرسالية تابع للكنيسة الكاثوليكية الأم.

عزمت بعد تفكير عميق على المضي قدمًا في ذلك، لما استحضرت العائد من ورائها على حالة ذلك المسن، ولما لها أيضًا من استفادة لي نفسيًّا بكسر حالة الفوبيا التي أصابتني من الملجأ لفترة، وأحيانًا تعود عند تذكري لمشهد ضربي عند بوابته، والأمر أيضًا أصبح عاجلًا بعد تدهور حالة «ألفونس» بشدة وطلبه لرؤيتي أكثر من مرة، فليست فرصة أفضل من ليلة عيد الميلاد كما قالت «مارسيل» والتي لم يتبقَّ على مجيئها سوى يومين، علني أستطيع أن أقابل البطريرك قبلها؛ ومن ثم موافقته حتى يتسنى لي التواجد معهم ذلك اليوم داخل الملجأ؛ فأكون قد حققت رغبة



«ألفونس» إضافة لأمر هام مما اتفقت عليه مع «مارسيل» من قبل وهو الاحتفال معهم بعيد الميلاد وتزيين الملجأ في هذا اليوم.

ذهبت إليه في مكتبه بكنيسة «الروم» بالإسكندرية، وكان من حسن القدر أن يكون هناك، وأن أتمكن ايضًا من مقابلته عندما أخبرت مدير مكتبه أن الأمر عاجل بالنسبة لي.

تحدثت معه عن طلبي في أن أتمكن من زيارة الملجأ في يوم قداس عيد الميلاد، دون أن أخوض في تفاصيل منعي من دخول الملجأ، فقط أعلمته بذلك المنع، لذلك جئت إليه؛ لما له من صفة دينية هي الأكبر في قطرنا بالنسبة للطائفة الكاثوليكية التي تدير الملجأ، أرجعت سبب منعي من الأم «مارية» لأسباب مشادة قد حدثت بيني وبينها على أسلوب إدارتها للملجأ، دون الخوض في كثير من التفاصيل، وما آلت إليه الأمور من ضربي وسجني، وذلك حتى لا يتطلب الأمر منه استقصاء لعظم الأمر وهو ما لن يسمح به ضيق الوقت، والأمر الآخر، هو أني لو أفصحت بكل ما حدث فهو اتهام مباشر وخطير للأم «مارية» وعندها فأي موافقة من الأب لي بالرجوع ستكون تصديقًا ضمنيًّا لي وهو ما سيتطلب منه أخذ قرار في هذا الشأن فوريًّا فقد ارتقت الاتهامات لدرجة الجنائية، وهو أيضًا ما سيتطلب الكثير من الوقت والتوثيق، بل وقد يطلب رفع الأمر لمن هو أكبر من حتى بطريرك الأقباط الكاثوليك إلى بابا الكنيسة الأم ذاته، وهذا لم يكن غرضي ولا هدفي من الأساس، على الأقل في هذا الوقت، لذلك صدرت له الأمر على أنه خلاف قد أكون احتددت فيه عليها، وحتى طلبي هذا كان له بمثابة توصية منه أو طلبًا من موقع قداسته الدينية وليس أمرًا يثير بسببه غضبها؛ فلا يتحقق ما أريد.



وبررت له زيارتي هذه بأنها تلبية لرغبة أحد المسنين الذي تربطني به علاقة ود كأحد زوارهم، فأردت أن أجعلها يوم عيد الميلاد كي أستطيع إسعاده في ذلك اليوم، وقد أبلغته باسمه إن أراد أن يتأكد من ذلك.

وهو ما قوبل منه بالموافقة، بل بالسعادة، كوني مسلمًا أتمتع بهذه الروح، على حد وصفه.

فقال لى: بل نسعد نحن بتشريفك في كل يوم وليس فقط ذلك اليوم، ثم كتب لي مراسلة على ورقة مطبوعة بشعار الكنيسة الكاثوليكية ومكتبه هو شخصيًّا، إلى الأم «مارية» أن تتجاوز عما سبق بروح المحبة التي أتى بها يسوع، راجيًا منها السماح لي بدخول الملجأ والاحتفال مع المسنين بقداس عيد الميلاد المجيد.

صيغة كما تمنيتها متوازنة، ليس فيها أمر، وليس بها ما يدل على أنني قد أسأت إلى صورتها عنده، وهذا ما لم يحدث مني اتقاءً لشرها، بل طالبها هي بالتجاوز عني في مراسلته لها، عله كان سبب ذلك هو قولي له إنني احتددت بعض الشيء في حديثي معها، لا يهم أن ما وصل إليه أنني من تجاوزت معها، الأهم هو تمام ما أردت، فإن كان عليها فهي أصبحت أبغض من على الأرض إليَّ، ولولا هذا الطلب الإنساني من «ألفونس» ما عرّضت نفسي لذلك أبدًا.

تعجبت من نفسي كثيرًا! كيف أفعل ذلك بعد كل ما تعرضت إليه! الأمر الذي لم يتوقف عند معاناتي الشخصية فحسب، بل ما طالهم أيضًا عندي في البيت، أثناء تلك الفترة العصيبة التي مررت بها وأنا حبيس فيها قيد التحقيق، هذه الفترة التي ربما لن يمحو أثرها زمن، وما تعلمته واكتشفته أيضًا في تلك الفترة من حقائق جعلني أصدق ما كذبته من



قبل لأنني لم أره بعيني، فقد حدث معي شخصيًّا، على أية حال هو يوم لذلك المسن، وتلبية لطلب إنسان، لعله يكون طلبه الوحيد في حياته الذي سينفذ، سأذهب دونما أي خبر لوالدي أو والدتي، حتى لا تثار مخاوفهم مرة أخرى أو يعيقاني من الذهاب خوفًا عليّ، لكن الأمر أظنه مختلفًا بتلك المراسلة التي بين يدي من البطريرك، فهي على حد قول «مارسيل» لن تستطيع الأم «مارية» مخالفة ذلك؛ لما لطلبه هذا من قداسة عندها، أتعجب! كيف يجتمع في قلبها النقيضان؟! كيف أنها لا تستطيع أن تخالف طلب البطريرك لقداسته الدينية، وهي التي تتعدى كل حدود ذلك الدين بأفعالها ولا قداسة عندها لروح كرمها الله؟! لكن سرعان ماتلاشى عجبي هذا بتذكري تلك النماذج التي كنت أتعجبها أيضًا من قبل، من هذا الرجل الذي تبدو على جبهته «زبيبة» الصلاة، ويعامل الناس بكل صلافة وشدة، بل ينفر منه كل الناس لسوء خلقه، اختزلوا الدين فقط في بعض المظاهر والعبادات الخارجية التي ليس لها أي مردود على دواخلهم وأخلاقهم ومعاملاتهم كما أراد الله من فرضها، لا عجب أن تحترم تلك القداسة للبطريرك، ربما فهمها قد اقتصر عند صورتها لديه فقط، كالذي يسيء معاملة الجميع في مكان عمله، إلا مديره لسلطته فقط عليه، وأظن أن ذلك الاحترام هو فقط لسلطة الأب الروحية وليس من روحها النقية، كذلك من يتعامل بسلطوية، لا تردعه إلا سلطة وإن كانت روحية.

كلنا ذوو خطأ، ويعترينا النقص، كما قال «ألفونس» لكن الطامة تكون أكبر عندما يتساوى خطأ رجل الدين، أو من هو المفترض أن يكون كذلك، مع خطأ عامة الناس، بل المجرمين منهم، تلك هي الطامة الكبرى..



ويبقى العجب الأكبر، وهو ما كان مني! ذلك الشطط الذي حدث في تفكيري، الذي تحول من شيء إلى نقيضه، كيف أجتهد للمشاركة في احتفال عيد الميلاد، والذي كنت أقتنع من قبل بحرمة تهنئة المسيحيين فيه، بل النصارى، كما كان يطيب لي تسميتهم، إنه الفهم، الفهم الذي جعلني أرى أنه ليس ثمة تعارض في أن أختلف عقائديًّا مع أحد، وبين أن أحترم اعتقاده هذا، كالذي قال: «أختلف معك في الرأي لكني مستعد أن أموت دفاعًا عن حريتك في إبدائه» ذلك الفهم، الذي جعلني أفرق بين مجاملتي لنفس في يوم فرحها أو عيدها، أنه ليس تفريطًا فيما أعتقد، وليس بالضرورة أنني أعتقد اعتقاده حتى أههنئه بعيده، كل ذلك من باب المودة الطبيعية بين البشر والتسامح الذي أمرت به الأديان، الفهم الذي جعلني أرى في ذلك صحيح الدين، وليس البعد عن الدين، إن اعتبرناه شيئًا من البر الذي أمرنا الله به في قوله تعالى: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ﴾ (الممتحنة: ٨) فكيف أبيح لنا الزواج من كتابية وهي على دينها ولا أستطيع ان أهنئها بعيدها؟!...

وذلك أيضاً ماكان من «مارسيل» حيث هى الأخرى تحتفل بعيد الميلاد معهم على التقويم الكاثوليكى والذى فيه عيد الميلاد يوم «٢٥ ديسمبر» وهى ارثوذكسية عيد الميلاد فى عقيدتهم يوم «٧ يناير» لكنه التسامي عن مواضع الإختلاف لتوحد على الإنسان..

تبقى شيء، هو أنني كيف سأدخل ذلك المكان مرة أخرى وهو من ضربت على أبوابه؟! نفسي لا تقبل هذا، لا تقبل أن أذهب لهؤلاء المجرمين من أفراد الأمن مرة أخرى طالبًا منهم الدخول، حتى وإن كان معي ذلك الخطاب والتوصية، أشعر بكسر في داخلي، سأتذكر ضربهم لي وأنني لم آخذ بحقي منهم.



انتهى تفكيري إلى الاتصال بـ «مارسيل» حتى أخبرها بما تم في زيارتي للبطريـرك، وأيضًا بما أشـعر به من غصة بسـبب هـؤلاء المجرمين، وأن نفسي تكره ذلك جدًّا..

اتصلت عليها، أبدت سعادة كبيرة بما أنجزت، وأكدت أن «مارية» لن تستطيع رفض ذلك أبدًا، أما عن كيفية الدخول، وكيف سنقدم ذلك الخطاب لـ «مارية» دونما أي احتكاك بالأمن.

قالت لي:

ـ دع ذلك عليّ.

ثـم أخبرتنـي بما سـتفعله، وهو أننـي سـأقوم بالاتصـال عليها عند قدومـي إلى الملجأ حتى تكون في اسـتقبالي عند البوابـة الأخرى للملجأ «بوابة دخول السيارات».

حيث إن من يؤمنها الموظفون القدامى والذين أعرفهم وتربطني بهم علاقة مودة، وهي ستقابلني عند تلك البوابة وتأخذ مني الخطاب وتتولى رفعه إلى «مارية» وسأظل طيلة هذا الوقت بجوار أصدقائي من الأمن حتي تأتيني بالرد.

ارتحت إلى حد كبير لما اقترحت عليّ، وحل لدي مشكلة كانت تصدني عن الزيارة.



(١٣)

«الآن أموت كافرًا بما حييت مؤمنًا به.

كافرًا برهبانية جعلتني متنكرًا من حاجتي كإنسان، متكلفًا أنني ملاك.

كافرًا بتدين جعلني بعيدًا عن الإنسان، لا عن المعاصي، زاهدًا في الفرحة لا الخطايا»





أتى يوم الزيارة، ذهبت في الصباح، كنت كثير التفكير وأنا في طريقي للملجأ، شريط ذلك اليوم الأليم يمر على خاطري وأنا أقترب شيئًا فشيئًا من موقع ذلك اليوم، كنت أخشى أيضًا ألا تقبل هذه «المارية» خطاب البطريرك أو يحدث أى احتكاك بيني وبينها، كنت أهيئ نفسي لكل المواقف حتى أضبطها، كل ذلك لم ينهِ على رجائي وسعادتى بمقابلة أهل الملجأ والاطمئنان على «كرستين» و«ألفونس» إن تمت الزيارة على خير وتمكنت من الدخول.

وصلت إلى البوابة الثانية، اتصلت على «مارسيل» استقبلتني كما تواعدنا عندها، دخلت بكل يسر، مع استقبال حار وأحضان من العاملين الذين كنت أعرفهم، فـ«مارسيل» قد مهدت لذلك لهم، وأخبرتهم أنني قادم ومعي خطاب من البطريرك، انتظرت معهم حتى تأتيني «مارسيل» وذهبت هي بخطابي إلى «مارية».

عادت بعد حوالي ١٠ دقائق، قد أشارت إلي بالدخول؛ فدخلت إليها، فأخبرتني أن كل شيء على ما يرام، ثم اصطحبتني لزيارة النزلاء، وفي مقدمتهم «كرستين» و«ألفونس» سألتها ونحن في طريقنا للصالة الرئيسية عن رد «مارية» على الخطاب وكيف استقبلت ذلك، قالت:



ـ لم يكن لها إلا أن توافق، لكنها تحترق الآن غيظًا من ذلك، وأظن أنك لن تراها إلى آخر اليوم؛ مما أصابها من غيظ يجعلها تلازم حجرتها، أظن أنها لن تنزل إلا على القداس في المساء.

قلت: «خيرًا.. سأكون سعيدًا جدًّا إن لم أرها».

ذهبنا إلى الحجرة التى يُمَرض فيها «كرستين» و«ألفونس» كما كنت أراهما من قبل جالسين بجوار بعضهما البعض على «الدكة» الآن هما ممددان بجوار بعضهما البعض على سريرين متجاورين.

كنت قد علمت حالهما، وما زادهم من سوء من «مارسيل» لكن واقعهم أشد سوءً فـ«كرستين» لا تتحرك ولا تتكلم، محاطة بالأنابيب، أنابيب للطعام، أنابيب للتنفس، جسدها النحيل أصبح فقط عظمًا مكسوًّا بجلد يابس.. «ألفونس» وإن كان أفضل منها حالًا، لكنه ليس حاله الذي كان عليه، فقط يتقلب ويتكلم بصعوبة شديدة، لا يقوى على النهوض من مضجعه، هكذا بدا لي عند دخولى عليه في اللحظة الأولى، فما أن دخلت عليه حتى همَّ بالنهوض، ولكن دون جدوى، خذلته قدرته، فلا قوة له على ذلك، أسرعت إليه، جلست بجواره، فإذا بعينيه تنساب بالدمع، ثم قال لي بصوت خافت مهزوز:

ـ سعيد بمجيئك قبل ذهابي، كل الشكر لك على ما أصابك من أجلنا، آلمني جدًّا ماحدث لك من أجلنا.

قاطعته:

ـ بل كل الشكر لك على كل ما تعلمته منك، الشكر أن منحتموني مساعدتكم، أن منحتموني إنسانيتي، كنت أحاول أن أرد لكم شيئًا من



حقكم علينا، أنا الذي أعتذر لكم ولكل من بالملجأ على ما أصابكم.

حاولت تغيير حديثي ونمطه، حتى أحاول إخراجه مما هو فيه.

فقلت:

ـ أين قوتك؟ هل أصبحت عجوزًا؟ من سيساعدنا اليوم في زينة عيد الميلاد إن لم تقم؟

قال لي بحزن شديد:

ـ وكأنني كنت أستمد قوتي منها عندما ضعفت، ضعفت عندما تمددت على فراش المرض ولم أستطع النهوض بجسدي.

جلسنا معه وقتًا طويلًا وهو على هذه الحال، قد انهار من شدة حزنه، حتى غلبه النوم من أثر الحقنة المهدئة التي أعطاها له طبيب الملجأ لما ساءت حالته.

فخرجنا من عنده لنمر على باقي النزلاء، ثم نبدأ في تزيين المكان بعد ذلك؛ استعدادًا لقداس عيد الميلاد، كنت أذهب لذلك على مضض، فلمن أزين المكان؟ ولمن سيكون الاحتفال؟ يبدو أن العيد قد جاء متاخرًا!

انتهينا من تزيين الملجأ وقلوبنا تعتصر حزنًا، حتى الملجأ، رغم زينته، يبدو عليه الكآبة والظلام.

لم يتبقَّ على القداس إلا حوالي ساعة واحدة، في هذه الأثناء، نادت علينا «غالية» أن «ألفونس» قد طلبكما بالاسم.

انطلقنا إليه، وجدناه يبكي بحرقة وهيستيريا، أشار إلينا عندما رآنا



بأن نقترب من جواره، وأشار أيضًا على جميع من كانوا بالحجرة بأن يقتربوا: «الطبيب، غالية،» وكأنه يريد أن يحدثنا جميعًا بشيء.

ثم أخذ ينادي بصوت يختلط بالبكاء على «كرستين» لتسمع أيضًا ما سيقوله، ولكن لا حياة لمن تنادي، تمثلت تلك المقولة بكل ما تحتويه من معنى في ذلك المشهد.

حاولت تهدأته، وأن أثنيه عن الحديث حتى لا يُرهق مرة أخرى ويحتاج وقتها إلى حقنة أخرى، لكنه أبى، وأخذ يتحدث بكل ما في صدره قائلًا لي:

- دعني أتحدث يا «مازن» ففي حديثي راحة، دعني أتحدث بما كنت أود قوله منذ خمسين عامًا، نعم خمسين عامًا، في مثل هذا اليوم، دار علينا الزمان وفعل فينا فعلته ولم نستطع فعل أي شيء، سوى الاستسلام للقدر، لم نبدِ حتى مشاعرنا، كنا نقيم وزنًا لاعتبارات كثيرة فضلناها حتى عما نحتاجه كبشر، ولم تُعِرنا هي أي اهتمام، وكأنها تقول لنا: لم أطلب منكم ذلك، أنتم من فعلتم هذا بأنفسكم، وكأن الرب أيضًا يقول ذلك، يقول لي: ما كان لي حاجة في امتناعكم عن الحياة أو الانعزل عنها.

الآن أموت كافرًا بما حييت مؤمنًا به.

كافرًا برهبانية جعلتني متنكرًا من حاجتي كإنسان، متكلفًا أنني ملاك.

كافرًا بتدين جعلني بعيدًا عن الإنسان، لا عن المعاصي، زاهدًا في الفرحة لا الخطايا.

الآن فقط وأنا على فراش الموت، أشعر بالقوة في أن أقول ما بداخلي،



وما حرمت قوله وأنا في شبابي، سأبدي مشاعري لحبيبتي، استطعت التحدث في وقت لا تستطيع هي فيه السماع، لكن حسبي أنكم شهود، حسبي أنكم تسمعون.

أتذكر ذلك اليوم جيدًا بكل تفاصيله، أتذكره رغم مرور خمسين عامًا عليه، أتذكر عندما أتيتِ هاهنا، من فرنسا، شابة في العشرين من عمرك، أتيتِ كأحد أفراد كورال الكنيسة الكاثوليكية، للاحتفال معنا بترانيمكم بعيد الميلاد، في ذلك الوقت كنتِ أجمل من رأيت من بشر، كنت أختلس النظرات إليكِ، فأنا الراهب الذي ليس له حاجة في النساء، هكذا كنت أوهم نفسي وأبدي عكس ما أبطن، لكن كان في ذلك ثمة حقيقة أنني من قبلك بالفعل، لم تكن لي حاجة في النساء، أنا احتجتك أنتِ فقط، أحببتك أنتِ فقط، أعجبتني فطرتك السوية الدينية، تلك الفطرة التي أساءتني أيضًا عندما علمت بقرارك بعدم العودة، بعد سماعك لهن، واقتناعك بالرهبانية، عندها كنت أود الصراخ في وجهك أن عودي، ويكفي بعض وقتك للكنيسة، كفاكِ أنك من فريق الترانيم الدينية، على رغم من أن جلوسك هنا سيتيح لي النظر إليكِ ورؤيتكِ، لكنني كنت أود أن تظل زهرتك الجميلة الندية في منبتها الخصب، كان الكل يعلم أني أحبك، وأظنك أيضًا كنتِ تعلمين، فكنت لا أجلس إلا بجوارك، ولا أتحدث إلا معكِ بالفرنسية التي لم ترق لكِ غيرها، كانت أناقتها متسقة معكِ، ومع كل ذلك لم أتجرأ على البوح بوضوح؛ عندها كانوا سيتخذون معي أو معنا إجراءات أخرى، ربما هي من أضعفتني عن البوح، روحك كانت طيبة تأثرت سريعًا بحديث الراهبات، لكنك يومًا لم تكوني منهن كما لم أكن يومًا منهم، فلم ترتدي إلا رداءك، رداء الإبداع، وفريق الكورال، هكذا أرواح المبدعين، شعرت بك عندما شعرت بخطأ اختيارك وإن لم



تفصحي، فهذا ما مسني من قبلك، وأعلم أيضًا أنك قلت في نفسك، لقد مر الكثير من عمري وأنا هكذا، فكيف أرجع عن طريق أوشكت على نهايته، سأمضي فيه حتى لا أخسر ما تجاوزته من قبل.

ليتك خسرت ما مضى، وخسرت أيضًا، ليتنا عدنا وإن لم يكن لنا سوى يوم في الحياة، كنا عشناه سويًّا، العودة آخرًا خير من أن لا نعود أبدًا ونموت بالحرمان.

آآآآه يا كرستين، آآآآآآه يا حبيبتي، آلان أصدح بحبك، أحبك أحبك أحبك...

أخد يردد «أحبك» حتى بح صوته وكأنه ينفس عن نفسه ما كتمه أعوامًا، دخل بعد ذلك البوح والذكريات المرهقة على النفس في نوبة غيبوبة، استفاق منها بعد حوالي ساعة، كنا خلال ذلك الوقت نحاول إفاقته، خاصة وأن نبض قلبه وأنفاسه على ما يرام، عاد أيضًا باسمها، بصوت خافت: كرستين، كرستين، وهو ينظر إليها بطرف عينه من سريره وهو بجوارها على السرير الآخر، صار على هذه الحالة وقتًا ليس بالقليل، ونحن حوله، نحاول إعانته وتمريضه بجوار الطبيب.

مع دقات أجراس عيد الميلاد، في سجى الليل، ومع أصوات الترانيم الغربية الدينية التي تعلو ابتهاجًا بالعيد، أبت روح «ألفونس» إلا أن تحضر العيد في مكان آخر، صعدت الروح إلى بارئها، وكأن ذلك عيدها، أن تفارق هذه الأرض وأن ترحل عن الملجأ، شعرت أن التوقيت له دلالة، دلالة تقول لنا أن ليس كل الموت حزنًا، فبعضه عيد، عندما يكون الرحيل عن دنيا أبت أن نعيشها، مات «ألفونس» على ذكر حبيبته، مات بعد أن أصابه المرض من حزنه عليها، فمات خوفًا أن تموت..



(١٤)

«ما الذي يمنعنا من أن نفصح عن حبنا، بينما يكون الإفصاح عن الكره متاحًا؟ لماذا نبحث عن تبرير للحب، بينما إظهار الكره يسير؟ لماذا أصبح الاعتراف بالحب مخاطرة تحتاج جراءة؟ لماذا أصبح الحب ضعفًا نخشى أن يظهر علينا؟ لماذا؟»





كيومي الأول، أتذكره بكل تفاصيله، كما دخلت لأول مرة مع «مارسيل» كي أتعرف على الملجأ وساكنيه، خرجت أيضًا معها، لكن ليس فيه أي تفصيلة لا أعرفها، غير أن ذلك اليوم الأول دخلته في بواكير الصباح، خرجت منه ذلك اليوم الأخير في ظلمات الليالي، وكأنها تذكرة لي أن هكذا هو يوم السكن فيه، حيث إنهم لا يرون من اليوم سوى ضوء الشمس المتسلل من النوافذ، والليل الذي يأتيهم بموعد نومهم، ويعتم عنابرهم، أيضًا لم يكن دخولي وخروجي مثل دخولهم إليه وخروجهم منه، فقد خرجت على قدمي، وهم ليس لهم خروج إلا ممددين على الألواح، محمولين على الأعناق.

دخلت شابًّا لا يفكر إلا في مرحلته ومستقبله فقط، خرجت خائفًا! كيف سأكون في مشيبتي! دخلت وأنا ككل الشباب، أشعر بأن أشياء كثيرة تنقصني، أرى أن الكل أفضل مني، أتمنى أشياء كثيرة بعيدة المنال قد جعلتني أنسى أشياء أخرى لدي، قد فضلت بها عن الغير، خرجت وقد علمت ما في حياتي من نعم، بل ما فيها من ترف إذا ما قارنته بما عليه حال أهل الملجأ، خرجت أستصغر كل مشكلاتي عندما رأيت ما هو أكبر منها؛ خرجت وقد تسامت أهدافي وآمالي.

خرجت مع «مارسيل» واعترافات «ألفونس» الأخيرة بحبه



لـ«كرستين» ما زالت تتردد في أذني، وكيف أنه اعترف وصدح بما يشعر في وقت، لن يغير ذلك الإفصاح فيه شيئًا فقد قضي الأمر.

قلت في نفسي، ما الذي يمنعنا من أن نفصح عن حبنا، بينما يكون الإفصاح عن الكره متاحًا؟ لماذا نبحث عن تبرير للحب، بينما إظهار الكره يسير؟ لماذا أصبح الاعتراف بالحب مخاطرة تحتاج جراءة؟ لماذا أصبح الحب ضعفًا نخشى أن يظهر علينا؟ لماذا؟

ما دامت هي حياة واحدة، فلماذا لا نكون مع من نحب؟! إن لم نستطع أن نكون معه، فأقل ذلك أن يعلم أننا نحبه.

كل ذلك شجعني أن أقول لها وأنا خارج معها دون أي مقدمات: «مارسيل» إني أحبك، غير مكترث، كيف يكون ردها، فقط أردت أن أبدي ما أشعر به، بل وأتذوق حلاوة إبدائها وإعلانها.

توقفت فور سماعها، انتظرت مني تعقيبًا، لم أعقب، توارى وجهي خجلًا؛ فنظرت أسفل مني، فما كنت أفكر فيما بعدها، كان كل همي فقط أن أقول لها: «إني أحبك».

واصلنا السير دون اتفاق بيننا، إلى أي شيء سنذهب؟ لكن كان طريقنا تجاه كافيه «مزيكا» القريب من الملجأ، لم نجد أنفسنا إلا ونحن نتجه نحوه ونجلس فيه، ربما تلك الرغبة الوحيدة التي انتابتنا، أننا نريد أن نجلس حتى نرفع خجل اللحظة.

جلسنا أيضًا دونما حديث لدقائق معدودة، كل منا يخفي خجله في هاتفه، وكأنه يبحث عن اسم أو يتصل، حتى جمعت «مارسيل» ما يمكن أن تقوله، وكيف تقوله.



فقطعت ذلك الصمت وقالت:

ـ لا أعرف ماذا أقول، ولا أستطيع الفرح بما قلت، رغم أنه أسعدني، نعم أسعدني، لن أخفي ذلك، ولن أخفي أيضًا أنني أبادلك نفس شعورك، لكن أنا لا أستطيع التضحية لذلك الشعور.

ـ تضحية! أي تضحية؟!

ـ نعم تضحية، عندما أسير وراء شعوري، فثمة تضحيات لن أستطيع أن أضحي بها، فعليّ أن أضحي بأهلي لأنهم لن يقبلوا أن أكون لمسلم أبدًا، وتضحية بأصدقائي الذين لن يقبلوا أيضًا بذلك، أنا من أسرة متدينة محافظة، وأنا أيضًا متدينة، أحب أهلي جدًّا وأعلم أن ذلك سيحول بيني وبينهم إلى الأبد، سامحني إن قلت ذلك، حب نشأ لم يكن من قبل، وكنت من قبله بين أهلي سعيدة بهم، لكن أهلي خرجت منهم وبينهم، لا أتخيل حياتي بدونهم، أقول ذلك وأنا في قمة حزني، أقول ذلك في وقت كنت أتمنى أن لو أستطيع أن أفرح بما قلت، لكنها الحقيقة التي لا أستطيع الفكاك منها، نحن لسنا أحرارًا في حقيقة الأمر وإن بدا ذلك، ما دمنا مخيرين بين ترك مشاعرنا أو أهلنا وأحياناً ديننا.

وأنت أيضًا مثلي، وإن كان متاحًا في دينكم الزواج بمسيحية، ولكن سيقولون لك تركت كل المسلمات وذهبت لمسيحية؟! تركت الملتزمات وذهبت لمسيحية؟! لن يقبل ذلك أهلك، ولن يقبل ذلك أصدقاؤك، وإن كان مقبولًا في الدين، لنعلم أن المشكلة في دواخلنا وليست في الأديان، نحن من جعلنا الحواجز وليست الأديان.

انتهى كلامها الذي أسعدني قدر ما أحزنني أيضًا، أسعدني أن



سـمعت منها أنها تبادلني نفس الشـعور، فكما شعرت بحلاوة إبدائي لها غير مكـترث بأي شيء يكون ردها، سـعدت جدًّا من ردهـا أنها تحبني، وإن لم يفضِ ذلك لشيء، فعزائي الوحيد شـعورها، هذه هي الحقيقة وإن كانـت صادمة، آثرت أن تكون مع أهلها على أن تكون معي إن كان ذلك سيكون الأفضل لها، فكان ردي عليها:

ـ وأنا لن أعينك إلا على ما تحبين، ولن يكون حبي لكِ معول هدم لعلاقتك بأهلك أبدًا فقط أنا أحبك، يكفيني أنك عرفتِ ذلك، ويكفيني أنني أعلنت عن ذلك، قبل أن يفرق القدر بيننا، أو أن أقوله في وقت لا أستطيع فيه إسماعكِ...



(١٥)

«ضنَّ عليها الموت بنفسه لتعيش حياة الأموات»





مرت أيام... وأيام... بل مايتعدى الشهرين... لم يكن فيما انقضى من هذه الأيام سوى بعض الاتصالات التى كانت على فترات متباعده بيني وبين «مارسيل» أبقينا فقط على الخيط الرفيع الذى يحفظ صداقتنا والذى يتسنى به أن يطمئن كل منا على الآخر، حتى جاءت تلك المهاتفة الغريبة، الغريبة فى موعدها، والغريبة فى أسبابها وما حملته لى من أخبار اختلطت بها مشاعري بين التشمت والتشفي حيناً وبين التأمل فى سنة الله فى تدوال الأيام حيناً آخر..

غير تلك البصقة التى تلقاها وجهي رداً على سلامي عليه، لم يكن مني أى تفاعل آخر معه لاسيما وأن العدوانية قد غلبت على طباعه وهو ماكان يُحبس بسببه فى حجرة وحيداً لأيام، لم أتحدث فى شأنه سوى مرة واحدة مع «مارسيل» عندما قلت لها تحفظي على وجوده بالملجأ وأن حالته تحتاج بشكل كبير إلى مستشفى للأمراض العقلية وكنت مستغرباً وجوده فى الملجأ وهو على هذه الحالة، لكن بعد علمى بالسبب زال العجب، فقد كان ايضاً مثله مثل الحاجة «أمينة» وجوده مصدراً للدخل «لمارية» فكانت أسرته تتبرع بمبلغ كبير للملجأ نظير إيوائه، وعلمت أيضاً ان حالته لم تكن كما أصبحت عليه الآن، بل تدهورت أثناء وجوده فى الملجأ، فكان يحتاج لعلاج معين ومعاملة خاصة غير متوفرة فى الملجأ، فقد كان



كل تعامل «مارية» مع نشاطه الزائد وتمرده الدائم وحالة هياجه، بالحبس أو بالضرب، نعم الضرب، لقد قالت لي:

ـ أحياناً عندما كان يصدر منه شيئاً من ذلك كانت الأم «مارية» تستدعي الأمن فيقيدوه لها فتضربه بنفسها ثم يظل مقيداً حبيساً فى حجرة وحيداً، ظلت هكذا معاملتها له إلى وقت ليس ببعيد، بيد أنها قللت من حدتها عليه فى الآونه الأخيرة بعدما زادت عدوانيته وعنفه تجاه الآخر بشكل ملحوظ من جراء العنف الذى وقع عليه، واكتفت بعد ذلك بتقيده وحبسه ظناً منها أن ذلك علاجاً بديلاً عن الضرب الذى كانت نتيجته تدهور حالته وزيادة عناده.

غير ذلك الحديث لم أتحدث عنه مرة أخرى ولم أحاول حتى التفاعل معه تجنباً لعدوانيته، ماكنت أعلم أن ذلك المجهول سيكون السبب لتقام عليها سنة الله فى أقداره فى ذلك اليوم وتلك المهاتفة الغريبة التى كانت فى التاسعة صباحاً على غير المعتاد من «مارسيل» كانت منهارة من هول ما رأت..

قد انقض عليها كأسد ضاري، وهى تصيح على الأمن حتى يأتوا لتقيده ليُعاقب على مافعل، عزم ألا يستسلم لها هذه المرة، فبادر إلى عصا كانت بجواره فهاجمها قبل أن يدركها أحد، أراد أن يعاقبها على كل أفعالها معه ومع نزلاء الملجأ طوال هذه السنين، قبل أن تعاقبه هى بما لم يقترفه واعياً..

انهال عليها بالضرب، لا يبالي بصرخاتها كما لم تبال من قبل، ليس لها فى قلبه أى رصيد من عطف أو حنان، ليس فى ذاكرته غير مشاهد ضربها له ووجها العبوس دائماً، اجتمع فقدانه للرحمة تجاها مع فقدانه لعقله مجنون ينتقم ممن جن جنونه.



انطلقـت «مارسـيل»، مفزوعـة، مـن هـول الصرخـات، إلى المكان الصادر منه الصريخ، وقد كان الكثير من الأمن والعاملين وأيضاً المسنين يهرولون إلى ذلك المكان، فإذا بها فريسـة تحت أنياب أسد جائع، يكيل لها الضربـات بعصاه ويده،بكل ما أوتى من قوة، اسـتخلصوها منه، مثخنة قد تكسرت عظامها..

سمعت كل ذلك من «مارسيل» والتى كانت تتحدث بانهيار من هول مارأت من جراحها ودمائها، فقد كانت أول من وصل إليها لنجدتها حتى جاءت سيارة الإسعاف لنقلها إلى المستشفي فاقدة الوعي تماماً.

ظللتُ على اتصال بـ«مارسيل» طيلة هذا اليوم والوقوف على أخر التطورات عندها، فقد كان يوما طويلاً بأحداثه، بداية من ذلك الحدث مروراً بالتحقيق الذى صار لكل العاملين بالملجأ من الشرطة حتى ذهابها بعد ذلك لـ «مارية» فى المستشفي، وقد علمت هنالك أن إصاباتها التى أصيبت بها فى العمودالفقري، ستتسبب لها بنسبة كبيرة جداً فى شلل رباعى فى أطرافها لن تكون بعد ذلك إلا طريحة للفراش...

خرج دكتور «ميلاد» بصحبة مندوبي مستشفى الأمراض العقلية والنفسية الذين أتوا ليأخذوه من الملجأ إلى المستشفى حيث المكان الصحيح لمثل حالته، وكأن «مارية» أبت أن يخرج إلا بعد أن يخرجها هى أولاً على ظهرها، بعدما أصبحت الأموال التى كانت تأتيها من أسرته وبالاً عليها كما كانت على دكتور «ميلاد» من قبل فكانت تعذبه بها وتحبسه وحيداً، فخرجت على ظهرها نتيجة حرصها على هذه الأموال وعدم إرساله إلى مكانه الصحيح مستشفى الأمراض العقليه والنفسية

....



بعد مكوثها شهراً فى المستشفى، عادت إلى الملجأ، لكنها عادت على طاولة ممددة، لتقضي الباقي من عمرها بداخله طريحة فراشها مثلها كمثل باقي النزلاء بل أقل، ضنَّ عليها الموت بنفسه لتعيش حياة الأموات..

(تمت)







لا أحد هنا يفكر في الانتحار، ذلك أننا لم نحيَ حتى نموت، كل ارتباطنا بالحياة أننا فقط مقيدون في سجلها أحياء، ننتظر، عل الفرج يأتي فيما تبقى من أيام، ثم إننا لم نتخذ قرارًا واحدًا في حياتنا بمحض إرادتنا، أيكون أول قرارنا هو أن نموت؟!

لا ينتحر إلا من قد حيا بالفعل، بل أحيانًا يكون انتحاره مللًا من الحياة، ونحن مللنا من الموت على قيد الحياة!.

الآن أموت كافرًا بما حييت مؤمنًا به.

كافرًا برهبانية جعلتني متنكرًا من حاجتي كإنسان، متكلفًا أنني ملاك.

كافرًا بتدين جعلني بعيدًا عن الإنسان، لا عن المعاصي، زاهدًا في الفرحة لا الخطايا.



علاء أحمد:

كاتب روائى وشاعر من مواليد الإسكندرية عام 1985. يعمل مشرفا لنادى الأدب بقصر ثقافة القبارى بالاسكندرية. صدر له ديوان "لابس وش" عام 2014 ثم رواية "HIV" عام 2015.

تصميم الغلاف: أسامة علام



